تحقيق

الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله

الحمد لله الذي حبب الأوطان للظاعنين من أهلها والقطان، والصلاة والتسليم على سيدنا محمد ذي الشيم الحسان، وعلى آله وصحبه أولى البر والتقى والإحسان، وبعد،

فهذا روض هتون في أخبار مكناسة الزيتون، مسقط رأسي، ومحل أنسي.

بـــلاد بهـــا نِيطـــتْ عـــليَّ تمـــائمي وأول أرض مـــس جلـــدي ترابهـــا

وإنما عرف هذا البلد بهذه الأصافة ليمتاز عن مكناسة تازا[1]؛ وذلك أن من قبائل زناتة[2] ----------

(١) تازا كتبت بالألف في النسخة (أ، ج، د، هـ) ما عدا النسخة (و) حيث كتبت تازة.

(٢) قبيلة عظيمة من قبائل المغرب، وهم أشبه بالعرب في الأخلاق والعادات واصطناع وسائل العيش، كما أن لغتهم تختلف عن لغة البربر وتمتاز عنها، ومواطنهم بتلول المغرب وصحرائه ما بين غدامس والبحر المحيط، وجلهم بالمغرب الأوسط حتى إنه نسب إليهم فسمي وطن زناته، ومنهم قبائل قوية بالمغرب الأقصى، ولاسيما في شرقه وشماله، ولم تزل ألسنتها تتعرب منذ امتزجت بقبائل بني هلال في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، حتى صارت لغتها الأولى في حكم المعدومة، وقد اختلف النسّابون في نسبهم اختلافًا كبيرًا، فقيل: إنهم من ولد مادغيس الأبتر، ومن ولد جالوت، ومن ولد قيس عيلان، ومن العمالقة، وأكثر نسابة زناتة على أنهم من عرب حمير من التبابعة، ومن أشهر قبائل زناتة: بنو مرين ملوك المغرب، وبنو عبد الواد ملوك تلمسان، ومغراوة، وبنو يفرن، وتجين، وزواغة، ومغيلة ومطغرة، ومديونة، وملزوزة، ومطماطة، وصدراته، وبنو واسين...إلخ. انظر: ابن حزم «جمهرة أنساب العرب» تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف مصر (١٩٦٢م) ص٤٩٥، ابن خلدون «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، دار الكتب العلمية بيروت (١٩٩٢م) (٦/ ١٠٥-١٠٧)، السلاوي «الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى» (١/ ٦٠، ٦١).

=قبيلًا يقال «له»[١]: مكناسة[٢] منهم فخذ بتازا شرقًا من مدينة فاس[٣]، بينها نحو

(١) «له» ذكرت في نسخة (هـ)، وأما في نسخة (د، ج) ذكرت «لهم»، وفي (ب) ذكرت «لها».

(٢) مكناسة: هم من ولد ورسطيف بن يحيى بن ضرن بن رحبك بن مادغيس الأبتر، وأقرب الشعوب البربرية إليهم شعب زناته؛ لأنهم جميعًا بتر من ولد يحيى بن ضرن، ولمكناسة في القديم بطون كثيرة منها وصلات، وبوحاب، وبنو ورفلاس، وبنو وردبوس، وقيصارة، ونبعه... وكانت مواطنهم على وادي ملوية، ومن سجلماسة وراء منابعه العليا إلى مصبه في البحر المتوسط، وما جاور ذلك الوادي شرقًا وغربًا سيما ناحية تازا والتسول، وكانت رياستهم جميعًا في بني أبايرون واسمه مجدول بن نافر يس بن فراديس بن ونيف بن مكناس، وكانت لهم أيام ورجال أيام تبعية المغرب الأقصى إلى الدولة الأموية بالأندلس الذين دخلوا في صراع مرير ضد الدولة الفاطمية بالمغرب الأدنى، عندما قاموا بحروب عدة للهيمنة على المغرب الأقصى وجعله تابعًا لهم، وللمزيد انظر: ابن خلدون «العبر» م٦ ج١١ ص٣٢٠، ابن عذار: مصدر سابق (١/ ٢٣٩)، كما كانت لهم مقامات صدق في الجهاد بالأندلس، ثم انقسموا إلى مكناسة سجلماسة ورياستهم في بني واسول بن مصلان، ومكناسة تازا ورياستهم في بني أبي العافية، ولكل من الفريقين أخبار ووقائع وإمارات ورؤساء، أما مكناسة اليوم فلم يبق منها بالمغرب بهذا الاسم إلا قبيلة صغيرة تجاور تازا من جهة الشمال تحدها غياثة جنوبًا، والتسول غربًا، والبرانس شمالًا، ومغراوة وهوارة شرقًا، وتشتمل على بطون ثلاثة: بني علي وبني هيثم، وأولاد بكارة. انظر: ابن خلدون «العبر» ص١٠٠-١٠٠٧، عبد الوهاب بن منصور «قبائل المغرب» المغرب (١٩٦٨م) (١/ ١١٩-١٢١، ٣١٢).

(٣) مدينة فاس: مدينتان مفترقتان مسورتان، والمدينتان عدوة الأندلسيين وأسست عام (١٩٢هـ-٨٠٧م) وعدوة القرويين أسست عام (١٩٢هـ/ ٨٠٧م) في عهد ولاية إدريس بن إدريس، ويخترق المدينة ثمانية أنهار عليها نحو ستمائة رحى في داخل المدينة كلها دائرة لا تبطل ليلًا ولا نهارًا، تدخل من تلك الأنهار في كل ساقية ماء، وليس بالمغرب مدينة يتخللها الماء غيرها؛ لذلك كثر صبغ الملابس بالصبغة الأرجوانية، وفيها ثلاثة جوامع منها جامع عدوة القرويين، وجامع الأندلس، ومدينة فاس كثيرة الخصب والرخاء كثيرة البساتين والفواكه، وفي عهد السلطان يعقوب بن عبد الحق أمر ببناء فاس الجديدة عام (٦٧٤هـ-١٢٧٥م) لحاشيته وأهل خدمته وأوليائه، وخصص بها حي لليهود يسمى حي الملاح. انظر البكري «المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب»، مكتبة المثنى بغداد ص٨٨ وما بعدها، مجهول «الاستبصار» ص١٨٠، ياقوت الحموي «معجم البلدان» دار

نحو سبعة برد[١]، ومنهم فخذتان بهذا الموضع المراد غربًا من مدينة فاس، وبينها نحو ثلاثة برد ونصف برد، فتميزت إحداها عن الأخرى بما أضيف إليها، ومكناسة الزيتون لها وادٍ يسمى في القديم[٢] فلفلا، ويعرف الآن بأبي عمائر[٣]، وفيه يقول شيخ شيوخنا الأستاذ أبو عبد الله بن جابر الغساني[٤] في أرجوزته المسماة بـ«نزهة الناظر لابن جابر»[٥]:

فلـــن تـــرى في ســـائر العمائـــر مثـــل محاســـن أبي عمائـــر

يمر النهر المذكور[٦] من قبلة إلى الجوف[٧]، قريبًا من سورها، أصله -والله

الكتاب العربي بيروت (٥/ ٢٣٠) عطا أبو رية «اليهود في بلاد المغرب الأقصى» ص٨٠، ٨١.

(١) البرد: أي البريد ومسافته مقدارها اثنا عشر ميلًا.

(٢) القديم غير موجود في نسخة (د) ونسخة (ج).

(٣) هذا الوادي هو الواقع في الشعبة الفاصلة بين المدينة القديمة والمدينة الجديدة، كان في الماضي يعرف بوادي فلفل، ويسمى في الحاضر بأسماء متعددة حسب الأمكنة التي يمر بها، فهو وادي بوعمايز، ووادي بوفكران، ومعروف، ودردورة، وما زال اسم بوعمايز أحد أسمائه معروفًا إلى الآن، وأصل منبعه من غار يسمى غار الريح بجبل بوزكو أحد جبال قبيلة بني مطير. انظر: عبد الوهاب بن منصور: مرجع سابق، ص٤٣٢.

(٤) محمد بن يحيى جابر الغساني المكناسي فقيه وأديب من أهل مدينة مكناسة، دخل فارس، وأخذ بها عن جماعة، أخذ عن الإمام القوري، له «نظم رجال الحلبة»، وله في علم التعبير «نظم فائق»، وله «نزهة الناظر»، توفي بمكناسة (٨٢٧هـ-١٤٢٣م). انظر: ابن القاضي «جذوة الاقتباس» قسم ١، ص٣١٧-٣١٩، أحمد بابا التنبكتي: «نيل الابتهاج» ص٤٨٦، ٤٨٧.

(٥) محمد بن جابر الغساني المكناسي الفقيه العالم «نظم المرقبة العليا في تعبير الرؤيا» لابن رشد، ونظم رجزًا بديعًا في التعريف ببلده سماه «نزهة الناظر». للمزيد انظر: أحمد بابا التنبكتي «نيل الابتهاج» ص٨٦، «كفاية المحتاج» (٢/ ١٢٧)، ابن القاضي «درة الحجال» (٢/ ٢٧٨)، محمد بن مخلوف: مرجع سابق، ص٥١، ٥٢.

(٦) أي: نهر خاصة، وأن مكناسة سقي من عدة جداول. انظر مجهول «الاستبصار» ص١٨٦.

(٧) أي: من الجنوب إلى الشمال.

أعلم- من جبل فازاز[١].

ومكناسة هذه بلدة «خصيبة»[٢] ذات عيون وأنهار، وثمار كثيرة وأشجار، وهي كما وصفها ابن الخطيب[٣]؛ إذ يقول:

---

(١) جبل بني فازاز: كانت جبال فازاز تطلق في القديم على الجبال الممتدة من جنوب مكناس إلى وادي ملوية ووادي العبد، وقد اضمحل اليوم ولم يعد يسمى بفازاز إلا مكان بتلك الجبال يبعد عن مكناس جنوبًا نحو ١٠٠ كلم، كما يسمى بأهل فازاز بطن من قبيلة المضاغرة الزمورية. انظر مجهول «الاستبصار»، ص١٨٧.

(٢) «خصيبة» في نسخة (أ) كتبت خِصِنَّةٌ، والأصح كما ذكرت في باقي النسخ.

(٣) ابن الخطيب: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني الغرناطي اللواشي الأصل الشهير بلسان الدين بن الخطيب، وزير ومؤرخ وأديب، ولد في مدينة لوشة عام (٧١٣هـ-١٣١٣م) ونشأ في غرناطة، وبها تلقى دروسه إلى أن ظهرت عليه علامات النجابة، فتولى أمانة السر لأستاذه الرئيس أبي الحسن الجياب وزير السلطان أبي الحجاج يوسف بن الأحمر إلى أن توفي ابن الجياب عام (٧٤٩هـ-١٣٤٨م) خلفه ابن الخطيب في الوزارة، فعظمت منزلته، فجعله كاتب سره إلى أن توفي السلطان يوسف (٧٥٥هـ-١٣٥٤م)، فخلفه ابنه الغني بالله، فاستأثر ابن الخطيب بثقته، وأسبغ عليه لقب ذي الوزارتين لجمعه بين الكتابة والوزارة، وفي عام (٧٦٠هـ-١٣٥٨م) فقد عبد الغني ملكه، وقبض على لسان الدين بن الخطيب، ثم أُفرج عنه فرحل للمغرب، واستقر بها عامين.

وفي عام (٧٦٣هـ-١٣٦١م) عاد إلى غرناطة وتولى مكانته السابقة، ولكنه شعر بالوشاية عليه، فكاتب السلطان عبد العزيز المريني، وعندما اطمأن للسلطان عبد العزيز هرب إلى تلمسان فاستقبله السلطان أحسن استقبال، ورحل إلى فاس وأهدي ضياعًا ودورًا، وعندما تولى السلطان أبو العباس أحمد المستنصر بن إبراهيم المريني عام (٧٧٦هـ-١٣٧٤م) بمساعدة سلطان غرناطة الغني بالله اشترط عليه تسليم ابن الخطيب، وأرسل وزيره ابن زمرك إلى فاس، فعقد بها مجلس شورى، واستدعى ابن الخطيب لمناقشته فاتُّهم بالزندقة والإلحاد، فسجن ودس سليمان بن داود بعض الأوغاد فقتلوه خنقًا في سجنه في أواخر عام (٧٧٦هـ-١٣٧٤م).

وفي الغد أخذت جثته وأحرق شعره وبشرته، ثم دفنت في مقبرة باب المحروق بفاس، وله عدة مؤلفات منها «الإحاطة في أخبار غرناطة» ٤ أجزاء بتحقيق محمد عبد الله عنان، «نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب» ٢ جزء، جزء طبع في مصر بتحقيق أحمد مختار العبادي، والجزء الثاني طبع =

حُيِّيت يا مكناسة الزيتون ... قد صح عذر الناظر المفتون
طيب الهواء وصحة الماء الذي ... يجري بها وسلامة المخزون
وكفاك شاهد حسنها وجمالها ... أن «أوثرت»[1] بالقرب من زرهون[2]
جبل تضاحكت البروق بجوه ... وجرت عذاب مياهه بعيون
فكأنما هو بربري نافذ ... في لوحة[3]، والتين والزيتون[4]

وقال الأستاذ ابن الغساني:

= في المغرب، و«ريحانة الكتّاب ونجعة المنتاب» تحقيق محمد عبد الله عنان، وأعمال أخرى. انظر: محمد عبد الله عنان «لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري» مكتبة الخانجي، القاهرة (١٩٦٨م) ص٢٣١-٢٥٢ وما بعدها، ابن الخطيب «الإحاطة في أخبار غرناطة» تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة (١٩٧٣م) (١/ ١٧-٥٤)، ابن الأحمر «نثير الجمان في شعر من نظمي وإياه الزمان» تحقيق محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت (١٩٧٦م)، ص٣٦١-٣٦٢.

(١) ذكرت في نسخة (أ) «أثرت».

(٢) جبل زرهون: مساحته كبيرة يقطنه زواغة (بطن من البربر) وهم أغنياء شرسون كثيرو العدد، ويمتد هذا الجبل من سهل سايس على بعد ثلاثة فراسخ ونصف من مدينة فاس، ويمتد على مسافة عشرة فراسخ شطر الغرب، ويبلغ عرضه بعض الأماكن ثلاثة فراسخ ونصف، ويبدو من بعيد كأنه غابة كثيفة من أشجار البلوط؛ ولكنها أشجار زيتون، وزرهون من ملحقات مكناس، والجبل يضم أكثر من أربعين بلدة وقرية أو ضيعة كثيرًا بالحرث حتى إنه لا يوجد شبر واحد من الأرض غير مزروع، وتجارتهم الرئيسية هي الزيت الذي يحملونه قصد بيعه إلى فاس ومكناس وغيرها من المدن، وتفتخر نساء زرهون بجمالهن وزينتهن، ويتحلين بأساور وأقراط من ذهب وفضة، ولباسهم من صوف غير رقيق جدًّا. انظر: الحسن الوزان «إفريقية» (١/ ٢٩٤، ٢٩٥)، مارمول كربخال: مصدر سابق (٢/ ١٨١، ١٨٢)، الحميري: مصدر سابق ص٦٠٩، ابن زيدان «إتحاف أعلام الناس» (١/ ٢٨، ٢٩).

(٣) يشير إلى سورة التين والزيتون.

(٤) للمزيد انظر ابن الخطيب «نفاضة الجراب» ص٣٧٣.

لا تنكـرن الحـسن مـن مكناسـة ... فالحـسن لم يـبرح بهـا معروفـا
ولـئن محـت أيـدي الزمـان رسـومها ... فلـربما أبقـت هنـاك حروفـا

وهى كثيرة الفواكه والمزارع والمسارح[١]، فيها أنواع كثيرة من الهلالج[٢] المسمى بغرب الأندلس «العبقر»، ويسمونه البرقوق لا يكاد يوجد مثله في غيرها من البلاد كثرةً وطيبًا وغضارة خصت بذلك، «وفيها المشمش المسمى بالأندلس البرقوق»[٣]، وفيها أنواع من التفاح طيبة، من جملتها نوع يسمى الطرابلسي حلو عطر يعقد مرتين في العام في أكثر الأحوال، ويسمون الآخر منه العودة، وهو عطر جدًّا أصغر جرمًا من البطن الأول.

وفيها أنواع كثيرة من الإجاص، وفيها سفرجل كثير طيب حلو وحامض، ويركب التفاح فيه فيوجد، ويركب «أيضًا»[٤] فيه الإجاص، وفيه أنواع من الرمان كثيرة طيبة كالسفري[٥]، والراهبي، وميمونة، والنعيمي، والأخضر، ورمانها القديم

---

(١) المسارح؛ أي: أماكن رعي الأبقار، وعندما يرجعون إلى حظائرهم بمكناسة يدخلون من باب البراذعيين، وفي ذلك يقول ابن زيدان: «الباب الذي أوعد لدخول البقر عند بابه من المسارح». انظر «إتحاف أعلام الناس» (١/ ٥٧).

(٢) الهلالج: شجر على هيئة حب الصنوبر الكبير ينبت بالهند والسند والصين. انظر: ابن منظور «لسان العرب» دار المعارف (٦/ ١٦٦٥).

(٣) «وفيها المشمش المسمى بالأندلس البرقوق» غير موجودة في نسخة (ب).

(٤) «أيضًا» غير موجودة في نسخة (د)

(٥) السفري: رمان لا نوى له، وهو أطيب أنواع الرمان، والذي يُنسب إلى سفر بن عبيد الكلاعي من جند الأردن، وأحد رجال عبد الرحمن الأموي الداخل إلى الأندلس، والسفري هو الذي استنبته بقرية بكورة (ريه) وعالجه حتى أينع وأثمر وجاء فريدًا في نوعه عذوبة طعم ورقه عجم وغزارة ماء وحسن صورة، فلزمه النسب إليه، وعرف منذ ذلك العصر بالأندلس والمغرب بالرمان السفري. انظر: ابن خير الأشبيلي «المقنع في الفلاحة» تحقيق عبد العزيز الدوري، الأردن (١٩٨٢م) ص٤٠، هامش ٣.

صنف يقال له: القابسي؛ وهو جليل شديد الحلاوة ذو «نوا»[١]، وفيها الجوز والخوخ، وفيها من أنواع العنب الأبيض والأسود كثير طيب يطبخ ولا يزبب، وفيها من التين أنواع منها الشعري[٢] كشعري أشبيلية[٣].

ومنها نوع يقال له: السبتي[٤]، وهو أبيض للطول رقيق البشرة، وهما نوعان طيبان إذا أكلا أخضرين، ومنها نوع جليل «أبيض للخضرة مستدير»[٥]، يقال له: «الأنبضار»[٦] يشرح فتأتي شريحته[٧] في غاية الطيب، وغير ذلك من أنواع التين؛ كالأشكوز، والشبلي، والحمراء، والغدان، والحافر، والنقال وغيرها، ويجلب إليها

(١) «نوا» ذكرت في نسخة (ب) «نوى».

(٢) لا يزال معروفًا في المغرب بهذا الاسم إلى اليوم، وهو تين مستطيل شديد الحلاوة أسود اللون أو مائل للسواد، انظر عبد الوهاب بن منصور «الروض الهتون» نسخة (و) ص٦.

(٣) أشبيلية: مدينة قديمة ومعناها «المدينة المنبسطة» ويقال: إن الذي بناها يوليش (يوليوس) قيصر، وبنى في وسط المدينة قصبتين متقنتين، وهى مدينة كبيرة عامرة لها أسوار حصينة، وسوقها عامرة، وخلقها وأهلها مياسير، وأهم تجارة لهم الزيت يتاجرون به شرقًا وغربًا، ويتبع أشبيلية ثمانية آلاف قرية عامرة بالجماعات والديار الحسنة، ويطل عليها جبل الشرف، ويكثر عليه شجر الزيتون لدرجة اشتباك أغصانه، ويكثر بها التين، ويزرع القطن ويصدر إلى إفريقية وسجلماسة، وكذلك العصفر، ويزرع أيضًا قصب السكر، وفي عام (٦٤٦هـ-١٢٤٨م) تغلب النصارى على مدينة أشبيلية، وخرجت من حوزة المسلمين. انظر البكري «جغرافية الأندلس وأوربا» تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، دار الإرشاد، بيروت (١٩٦٨م) ص١٠٧-١١٦، الحميري «الروض المعطار في خبر الأقطار» تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة (١٩٨٠م) ص٥٩، ٦٠، الإدريسي «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» مكتبة الثقافة الدينية، مصر (١٩٩٤م) (٢/ ٥٤١).

(٤) نسبة إلى مدينة سبتة بالمغرب الأقصى.

(٥) «أبيض للخضرة مستدير» غير موجود في نسخة (د) أما كلمة «للخضرة» غير موجودة في نسخة (أ).

(٦) في نسخة (د) يذكر «الأنبدار».

(٧) الشريحة معروفة بهذا الاسم إلى اليوم، وهى تين مفلوق ييبس ويدخر للشتاء فيقتات به.

البلوط الجليل الحلو، وإما الزيتون فهو كثير جدًّا؛ ولذلك أضيفت إليه واشتهرت به.

ولما ولي محمد بن عبد الله بن واجاج[١] في أول أيام الموحدين «ببلاد»[٢] «المغرب»[٣] سيقًا وعملًا غرس بها وبفاس وبالمقرمدة[٤]، وبرباط تازا بحيرات «كثيرة»[٥]، أكثر غراساتها الزيتون، فكان حب زيتون بحيرة مكناس يباع عام الحمل بتحمسه وثلاثين ألف دينار ونحوها، وحب زيتون بحيرة فاس بخمسين ألف دينار ونحوها، «وحب زيتون بحيرة تازا بخمسة وعشرين ألف دينار ونحوها»[٦]، وذلك قبل أن يستولي على المغرب تخريب بني مرين عند اختلال أمر الموحدين[٧].

---

(١) محمد بن عبد الله بن واجاج: قدم على أمير المؤمنين عبد المؤمن يوفود من أهل فاس ومكناسة وعمالها لتهنئته بالإمارة بعد وفاة أمير المؤمنين أبي يعقوب. انظر ابن عذاري «البيان المغرب» تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني، وابن تاويت، الدار البيضاء (١٩٨٥م) قسم الموحدين، ص١٧٢.

(٢) كلمة بلاد مطموسة في نسخة (أ) وفي جميع النسخ «بلاد».

(٣) «المغرب» غير موجودة في نسخة (ج).

(٤) المقرمدة: مدينة تقع على بعد نحو عشرين ميلًا شرقي فاس، أسسها ملوك زناتة على ضفة نهر صغير، كانت في الماضي مركزًا رئيسيًّا لمقاطعة كبيرة تكثر بها البساتين والكروم، وقد اعتاد ملوك (سلاطين) فاس أن يمنحوا محصولها لمراقب نظارهم على الإبل؛ لكنها خربت وهجرت في حروب الأمير سعيد عثمان المريني (٨٠١-٨٣١هـ/ ١٣٩٨-١٤٢٧م) ومقاطعتها مكراة لأعيان من فاس وبعض المزارعين. انظر الحسن الوزان «وصف أفريقيا» (١/ ٢٩٢)، مارمول كربخال: مصدر سابق (٢/ ١٧٩).

(٥) كلمة «كثيرة» ذكرت في نسخة (د) ونسخة (ج) وغير موجودة في باقي النسخ.

(٦) هذا النص «وحب زيتون بحيرة تازا بخمسة وعشرين ألف دينار ونحوها» غير موجودة في كافة النسخ ما عدا نسخة (و)؛ لإضافتها من قبل عبد الوهاب بن منصور.

(٧) تعرضت مكناسة لهذه الاضطرابات عندما قام الأمير أبو بكر بن عبد الحق (٦٤٢-٦٥٦هـ/ ١٢٤٤-١٢٥٨م) بتوحيد صفوف بني مرين، ونزل بالقرب من مكناسة الزيتون... وبدأ يشن الغارات على المدينة وحاصرها، وضيق عليها، وقطع جميع المرافق والموارد عنها. لمزيد =

وفي بحيرتي فاس ومكناسة أنواع كثيرة من الفواكه الصيفية والخريفية والورد مما كان له غلة جليلة، «وفيها»[١] أرض بيضاء للخضر، والكتاب تُكترى بمال جسيم وغرسات مكناسة كلها سقي، إلا ما كان فيها بحكم النادر، وقد باد زيتونها لهذا العهد إلا قليلًا لما توالى عليها من الفتن، والبقاء لله وحده.

وكانت البلاد قبل فتحها ديار كفر مجوس ونصارى[٢]، وحاضرتها إذ ذاك

= من التفاصيل انظر: ابن أبي زرع «الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس» دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط (١٩٧٢م) ص٢٩٢، ٢٩٣، «الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية» دار المنصور للطباعة الورقية، الرباط (١٩١٢م) ص٧٢، ابن خلدون «العبر» م٧

ص١٧٢، السلاوي: مرجع سابق (٣/ ١٣). محمد عيسى الحريري: مرجع سابق، ص١٩.

(١) ذكرت في نسخة (هـ) «فيها».

(٢) ديار كفر مجوس ونصارى: إن وجود جماعات من بقايا مجوس ونصارى في المغرب في بداية الحكم الإسلامي شيء طبيعي، إذا اعتبرنا أن كنائس وأسقفيات ظلت تمارس طقوسها في المغرب في القرن (٥هـ/ ١١م)؛ ولكن تواترت الرواية بأن إدريس قد عمل على إخضاع المجوس أيضًا، شيء يثير الاستغراب فهل كان هؤلاء من عباد النار من أتباع الزرادشيته؟ شيء نشك فيه كثيرًا، والفرض الأخير هو أن تكون هذه الفئة بكل بساطة من الوثنيين الذي لا يدينون بالإسلام ولا بالنصرانية ولا باليهودية؛ بل يعبدون ظواهر الطبيعة أو أصنام؛ مثل الكاهنة التي كانت تعبد صنم من خشب تحمله على جمل في ترحالها. انظر المالكي «رياض النفوس» تحقيق: بشير البكوش وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت (١٩٩٤م) (١/ ٥٤).

وعلى كلٍّ فإن الفرد بل يشير إلى هذه الديانة الوثنية كبقايا معتقدات من الفينيقين. انظر «الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم» ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت (١٩٨٧م) ص٦٠-٦٣، إسماعيل العربي «دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة» ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر (١٩٨٣م) ص٦٤، ابن القاضي «جذوة الاقتباس» قسم ١، ص٢١. وللمزيد انظر: ابن زيدان: مصدر سابق (١/ ٤٧) وما بعدها.

مدينة يقال لها: وِليلى، سميت باسم ملكها وليلى[١].

وآثارها عظيمة باقية لهذا العهد بأرض خيبر[٢] من ناحية جبل زرهون،

---

(١) وليلى: تسمى توليت بالبربرية، تقع على بعد ٣٠كم إلى الشمال من مكناس على هضبة يبلغ علوها ٤٠٠م، وكانت مدينة عظيمة استقر بها ملوك البربر القدماء؛ مثل يوبا الثاني، وأصبحت مقرًّا للرومان، وأداروا بها سورًا وحجرًا كبيرًا، وجعلوا لها أبوابًا عالية واسعة، وطول سورها نحو ستة أميال، وقد بلغ قوة مجدها في القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد وبعد وفاة الإمبراطور بروبوس (٢٤٧-٢٨١م) بدأت تتدهور وتخرب

ولما انتشر الإسلام بالمغرب كانت بها بقية من عمران، وبها نزل المولى إدريس بن عبد الله على قبيلة أوربة لما دخل المغرب، فقام بدعوته شيخها عبد الحميد الأوربي، وأعانه على تأسيس الدولة الإدريسية التي امتد نفوذها على جميع المغرب الأقصى وجل المغرب الأوسط، وأصبحت قاعدة جبل زرهون، وبدأت أهمية وليلى تتضاءل بعد ذلك عندما ازدهرت بجوارها مدن أخرى كفاس ومكناس وطنجة وسبتة، فانقطع عمرانها، ودب إليها الخراب على عهد يوسف بن تاشفين، وحينئذ تفرق أهلها في الجبل، وليس في التاريخ ما يدل على قول المؤلف أن وليلى سميت باسم ملكها. انظر إسماعيل العربي: مرجع سابق ص٦٣، ٦٤، ابن زيدان «إتحاف أعلام الناس بجمال حضارة مكناس» (١/ ٣١، ٣٢، ٣٣).

(٢) يرى البعض أن هجرات يهودية وصلت إلى بلاد المغرب من خيبر عام (٧هـ-٦٢٨م) وأن أهلها اتخذوا من الجبال مقر لحياتهم بعيدًا عن الناس. انظر عبد الهادي التازي «النصوص الظاهرة في إجلاء اليهود الفاجرة» (مخطوط أحمد بن الرجال) مجلة البحث العلمي، عدد ٣٢، المغرب (١٩٨٠م) ص١٥؛ ولكن يبدو أن صاحب هذا الرأي قد جانبه الصواب؛ لأن المعروف أن يهود خيبر هاجروا إلى وادي أذرعات بالشام عام (٧هـ-٦٢٨م) عندما حاصرهم الرسول (ص) حتى أيقنوا التهلكة، سألوه أن يسيرهم وأن يحقن دماءهم ففعل، وترك من ترك من أهلها على الجلاء بعد القتال.

فكيف وهم أصلًا أقرب إلى وادي أذرعات على حدود الشام الذي فيه أبناء قبيلتهم وتجارتهم بالشام من النزول إلى الجنوب، ثم عبور باب المندب والرحيل إلى مسافة طويلة عبر الدهليز السوداني، أو إلى الشمال منه ليستقروا في جنوب وشمال المغرب؛ حيث مقولة ابن غازي: «بأرض خيبر» وعبد الهادي التازي الذي يؤيده في الرأي؛ ولهذا نرى أن أرض خيبر ادعاء من اليهود أنهم من خيبر؛=

تعرف اليوم بقصر فرعون[١]، قيل ولم تكن مكناسة في القديم «بمدينة»[٢] ممدنة[٣]، وكانت حوائر[٤] كثير متفرقة[٥]، وهي تاورا، وبنو عطوش، وبنو برنوس، وبنو شلوش، وبنو موسى، وهذه كلها على الضفة الغربية من وادي فلفل المذكور، إلا تاورا فإنها بضفتيه الغربية والشرقية، وغراساتها كلها منتظمة متصل بعضها ببعض

= حيث امتد الادعاء بمقرهم بحارة خيبر بالقيروان التي يسكنها اليهود. انظر حسن حسني عبد الوهاب «ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية» تونس (١٩٧٢م) قسم ٣، ص٢٥٥.
وأخيرًا بعد انتصاب الإسلام في الجزيرة العربية أصبحت النسبة إلى خيبر تطلق على كل يهود البلاد الإسلامية، وهكذا أطلقت كلمة خيبر بمعنى يهودي، فلا غرابة أن تسمى حارة اليهود في مكناسة خاصة، وإن فاس ومكناسة وسلا يقطنها يهود. انظر عطا أبو رية: مرجع سابق، ص٦٦، وخلافها بهذا الاسم، فإما أن يكون هؤلاء من مهاجرى خيبر ذاتها، أو لا فهذا ما يزال قيد البحث.

(١) قصر فرعون: مدينة صغيرة قديمة بناها الرومان على رأس جبل قريب من وليلى بنحو ثمانية أميال، وأهل جبل زرهون يقولون بأنه قصر فرعون موسى، ولم تظهر لي حجة ذلك، ولم يوجد في التاريخ تقدم ملك لفرعون ولا للمصريين على المحل، وتوجد حروف لاتينية منقوشة في بعض الحجارة تدل على أن الرومان هم الذين بنوه، ويوجد بالمدينة نهران متخالفان كل واحد يأتي من ناحية وأودية المدينة، ورباها كلها مغطاة بأشجار الزيتون.
ومشاهير المؤرخين يسمون قصر فرعون باسم قصر زرهون، وتقرأ إلى الآن كتابة قوطية على بعض سورها، وقد خرب هذا القصر وقت تخريب نيوليت أي مدينة وليلي، ولم تعمر لكون الأهالي يحبون السكني بالبادية دون المدن، وبقربها سوق على ربوة يعمر يوم الأربعاء يقصدها المكناسيون والفاسيون، ومن بات بها احترس من كثرة الأسد. انظر الحسن الوزان «إفريقية» (١/ ٢٩٦)، مارمول كربخال: مصدر سابق، (٢/ ١٨٢، ١٨٣)، ابن زيدان: مرجع سابق، (١/ ٣٤، ٣٥).

(٢) «المدينة» توجد في نسخة (هـ ج) ولا توجد في (أ، ب، د، و)، كما لاتوجد في ابن زيدان: مرجع سابق (١/ ٥٠).

(٣) ممدنة: لم توجد في نسخة (د، ب، أ) والغرض بكونها لم تكن ممدنة؛ أي: ليست مجتمعة الديار ولا عامة المنافع، ولا منضمة الشمل بسور حافظ. انظر ابن زيدان: مصدر سابق (١/ ٥٠).

(٤) حوائر: جمع لحائر؛ وهو المكان المطمئن الوسط المرتفع الحروف، ومن ذلك سموا البستان بالحائر. انظر ابن زيدان: مصدر سابق (١/ ٥٦).

(٥) عن ابن زيدان: «مفرقه» (١/ ٥٠).

لا فاصل بينها، وتاورا[١] أقرب الحوائر «إلى»[٢] المدينة من جهة باب البراذعيين[٣]، ومن حوائرها أيضًا بنو زياد وتقع غربًا من الحوائر المذكورة، وليست على الوادي المذكور؛ لكن لها منه جدول من نوع ساقية طولية المسافة المجر[٤]، ومن حوائرها أيضًا ورزيغة، يذكر أن أصل أهلها روم[٥]، وتقع شرقًا من نهر فلفل، وبينها مسافة، ولورزيغة حارتان قريبتان منها: بنو مروان وبنو غفجوم[٦]، وبنو مروان أقرب

---

(١) أي: مكناسة. انظر: ابن زيدان: مرجع سابق (١/ ٥٠).

(٢) «إلى» ذكرت في نسخة (ب).

(٣) «البراذعيين» ذكرت في (نسخة أ، نسخة ج، نسخة ب، نسخة د) كل هذه النسخ ذكرتها البراذعيين، ما عدا نسخة (هـ و).
وعن هذا الباب يقول ابن زيدان: «فقد أدركناه على خمسة أقواس تحيط به أبراج كثيرة، فهدم في سنة سبع وتسعين أو ثمانية، وزحلق لناحية الجوف، وبني علي ثمانية عشر قوسًا محدقة بصحن فسيح وبمدخله مسجد الخطبة مما صنعه وبناه الوزير علي بن يشو» وللمزيد انظر: «إتحاف أعلام الناس» (١/ ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧).

(٤) «المجرى» في «إتحاف أعلام الناس» ص٥٤.

(٥) هنا يثار سؤال: هل يعني ابن غازي بكونهم رومًا أنهم من بقايا الاستعمار الروماني الذي سيطر على شمال أفريقيا مدة ستة قرون؟

(٦) بنو غفجوم فخذ من قبيلة جراوة الزناتية، وكانت مساكنهم في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي بجهة تادلة، وإليهم ينسب الشاعر المغربي الفحل أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي الغفجومي، وهو القائل في هجوهم توصلًا إلى هجو بني الملجوم أحد بيوتات فاس الثرية:

يـــابن الـــسبيل إذا مـــررت بتـــادلا ... لا تنـــزل عـــلى بنـــي غفجـــوم
أرض أغـــار بهـــا العـــدو فـــلا تـــرى ... إلا مجاوبـــة الـــصدى للبـــوم
قـــوم طـــووا طنـــب الـــسماحة بيـــنهم ... لكـــنهم نـــشروا لـــواء البـــوم
لا حـــظَّ في أمـــوالهم ونـــوالهم ... للـــسائل العـــافي ولا المحـــروم
لا يملكـــون إذا اســـتبيح حـــريمهم ... إلا الـــصراخ بـــدعوة المظلـــوم
يـــا ليتنـــي مـــن غـــيرهم ولـــو أننـــي ... مـــن أرض فـــاس مـــن بنـــي الملجـــوم

للمزيد انظر: أبي الحسن علي بن موسى الأندلسي «الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة»، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار المعارف مصر (١٩٧٧م) ص٩٩، الحميري: مصدر سابق، ص١٢٨، الكتاني «زهر الآس» ص٢١٨-٢٢٠.

إليها، ومارها من من وادي ويسلن من أودية مكناسة، وبها عيون، وكانت ورزيغة مخصوصة بالأمن يسكن أهلها الخيمات بالجنات، فلا يلحق أحدهم خوف ولا يتوقعه إلَّا من «جهة»[١] الأسد خاصة[٢]، وببني زياد أيضًا عيون يسقون بها بعض أملاكهم، ويسقون بعضها بالساقية المخرجة من وادي فلفل المذكور بعضها بعل[٣]، وكان العنب البعلي[٤] بها في غاية من الطيب بموضع هناك[٥] يقال له: المتروئي[٦] إليه ينسب [العنب][٧] المتروئي، [هنالك][٨] قال الأستاذ أبو عبد الله بن جابر في «نزهة الناظر» بعد ما ذكر أصناف العنب بمكناسة:

لكنني أقول دون سوء ما فاق الأعناب سوى المتروئي[٩]

وهو[١٠] عنب أبيض شديد الحلاوة، ولاسيما الأنثى منه، ويذكر أنه من قوته لا يستحيل خمرًا إلا عند اعتدال الزمان، ومن غلوهم فيه أنهم يقولون[١١]: إنه

---

(١) «جهة» غير موجودة في نسخة (ب).

(٢) الخوف من الأسد: يكثر بهذه المنطقة الأسود، والتي يصطادها الرجال ويهدوها إلى ملك (سلاطين) فاس حية حيث يصارعونها مثل ما يُفعل بالثيران في أسبانيا. وللمزيد حول مشهد صيد الأسود انظر: الحسن الوزان «إفريقية» (١/ ٢٩٤-٢٥٩)، مارمول كربخال: مصدر سابق، (٢/ ١٨٢).

(٣) بعل: نوع من أنواع العنب يَشرب بعروقه من الأرض من غير سقي من سماء ولا غيرها. انظر: ابن منظور «لسان العرب» (١/ ٣١٥).

(٤) البعلي: ذكر في نسخه (أ) «البعل».

(٥) «هناك» ذكر في نسخة (هـ) «هنالك».

(٦) «المتروئي» ذكر في نسخة (ب) «المتروا».

(٧) ما بين القوسين إضافة لما ذكر في نسخة (هـ، ب، ج).

(٨) [هنالك] إضافة ذكرت في نسخة (ب، أ).

(٩) «المتروي» بدون الهمزة ذكرت في نسخة (ب).

(١٠) ذكر في نسخة (د) «هو» بدون الواو.

(١١) (أنهم) غير موجودة في نسخة (أ).

يستصبح بخمر، وهنالك قرية كان يقال لها: قرية الأندلس «كانت»[١] من عمل بني زياد، سكنها على قديم الزمان قوم أندلسيون وتناسلوا بها، وأقاموا دهرًا لم تتغير ألسنتهم ولا أشكالهم إلا من كان منهم كثير الامتزاج بأهل البلد فإنه تغير لسانه، وكانت لهم بالقرية المذكورة كرمات بعل في أرض رملة حمراء (كذا قيل)، وهذه القرية -والله تعالى أعلم- هي المسماة[٢] في هذه الأعصر تلاجدوت[٣].

وبها جرى المثل السائر «دار الكرامة[٤] يا تلاجدوت»[٥]، ومنها كان الشيخ أبو الحسن علي بن يوسف التلاجدوتي[٦] المدعو بسيدي علي بن يشو[٧]، وهو من شيوخ شيخنا الفقيه الحافظ سيدي أبي عبد الله محمد القوري[٨]، والخطيب البليغ المصقع سيدي أبي العباس أحمد بن سعيد الحباك الغفجميسي[٩]، وكلامهم اليوم

---

(١) ذكر في نسخة (هـ) «كأنها» والأصح «كانت».

(٢) ذكر في نسخة (أ) «المسمات».

(٣) ذكرت في نسخة (أ) «تلاجروت» والأصح كما في المتن.

(٤) ذكر في نسخة (ج) «الكرامات» والأصح الكرامة كما في باقي النسخ.

(٥) «تلاجروت» في نسخة (أ).

(٦) «التلاجروتي» في نسخة (أ).

(٧) سيدي علي يشو: هو علي بن يوسف بن يشو التلاجدوتي كان عالمًا في علم الحساب والفرائض. انظر: ابن القاضي «جذوة الاقتباس» قسم ١ ج ٣١٩، و«يشا» ذكرت بالألف في نسخة (د).

(٨) ذكر في نسخة (أ) «الخطيب» بدون ذكر الواو.

(٩) سيدي أبي العباس أحمد بن سعيد الحباك الغفجميسي: اختلفت المصادر في كتابة لقب الغفجميسي ذكر في نسخة (د) القيجميسي، وفي نسخة (ب) ذكر الفقجيمو، وفي نسخة (أ) ذكر الفقجيمي، وأحمد بابا التنبكتي في: نيل الابتهاج ذكر القيخمسي، وعند ابن القاضي في: جذوة الاقتباس القيجيمسي: وفي درة الحجال في أسماء الرجال القحميسي.
وأبو العباس ولد بمكناسة عام (٨٠٤هـ-١٤٠١م) ودرس بالمدرسة المتوكلية المعروفة بأبي عنان، وتتلمذ على الشيخ سليمان الذي كان أعلم زمانه، كما كان أعلم بمواجيد القلوب، ولم يفارقه حتى توفي، =

[يتكلمون][1] برطانة البربر المعزلة في العجمية.

وكانت حارة تاورا[2] هي أقرب الحوائر إلى المدينة، الآن يشقها وادي فلفل ديارها على ضفتيه شرقًا وغربًا، والغراسات بها وبسائر الحوائر متصلة بالديار، وبتاورا أرحاء[3] كثيرة كان أكثرها يحتوي «على أربعة أحجار، وكان من جملتها بيت واحد[4] للزغابشة[5] يحتوي»[6] على خمسة أحجار، وكان فيها حمامان اثنان، أحدهما

= وأبي العباس عمل خطيبًا بجامع القرويين، كما كان فقيهًا متصوفًا شاعرًا فصيحًا ظريفًا علامة، نظم مسائل ابن جماعة في البيوع وقال الشعر النفيس في التصوف وغيره.
وطلب للإمامة بالأندلس فأبي، وقال عنه ابن غازي في فهرسه: كان من آيات الله في النيل والإدراك مع حفظ وافر من الأدب، وله ذوق في التصوف، وكان صنو شيخنا القوري نشأ معه على أشياخه المكناسيين، وتوفي بعد السبعين وثمانمئة، انظر: التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص١٢٥، ابن القاضي: جذوة الاقتباس قسم ١ ص١٢٧ - ١٢٨، درة الجمال في أسماء الرجال، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة (١٩٧٠م) (١/ ٨٨، ٨٩).

(١) ما بين القوسين ذكرت في نسخة (هـ) فقط.

(٢) تقع هذه الحارة وتوابعها شرقًا عن يمين الخارج من باب البراذعيين الذاهب إلى زرهون، والحوائر الأخرى غربًا على يساره، ولم يبق اليوم معروفًا باسمه القديم من دائر تاورا إلا حارة بني موسى، كما لم يبق من نسل سكانها اليوم بمكناس إلا بنو غوش وبني زغبوش. انظر: ابن زيدان: مصدر سابق (١/ ٨٥).

(٣) «أرحاء» ذكرت في (نسخة هـ ونسخة د، ونسخة ب) «أرحي» وعند ابن زيدان «أرحاء».

(٤) «واحد» غير موجودة في نسخة (د)، ونسخة (ج).

(٥) «الزغابشة» أسرة كبيرة بمكناسة أيدوا دولة الموحدين في أول ظهورها، فقتل منهم جماعة على يد يدر بن ولكوط والي مكناسة من قبل المرابطين، ونال من بقي منهم جاهًا كبيرًا عند الموحدين، وطلوا يتولون خدمتهم في الحاشية والقضاء بالأندلس وغيرها إلى نهاية دولتهم، وقد انتقل بعضهم من مكناسة إلى الأندلس، وانتقل آخرون منهم إلى مراكش. انظر: المراكشي: الذيل والتكملة، تحقيق: محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت، قسم أول ص٣٧٨-٣٧٩.

(٦) ما بين التنصيص غير موجود في نسخة (ب).

منسوب للزغابشة، والثاني للمختص يعرف بحمام أبي الخيار بإزائه عين كبيرة تنسب كذلك لأبي الخيار، ماؤها عذب معين صافٍ تُسقى بها طائفة كثيرة من أملاك تاورا، ومن أملاك من تحتها، وكانت حارة تاورا تنقسم أقسامًا: قسم يقال له: بنو عيسى ديارهم بالضفة الغربية من الوادي يذكر أنهم أصل بني زغبوش؛ لكن لا نعلم صحة ذلك، غير أنهم كانوا في بعض العقود القديمة نسبتهم إلى عيسى بلفظ فلان بن فلان العيسوي، ويستدلون بذلك على أن بني زغبوش من بني عيسى، والله تعالى أعلم.

وقسم بالضفة المذكورة قبله من بني عيسى يقال لهم: بنو يونس، ويسمى[1] أيضًا هذا القسم تاورا الفوقية، وبهذا القسم كان المسجد الجامع، بين هذين القسمين موضع عالٍ جدًّا[2] يعرف بالجهنمية، وقسم بالضفة المذكورة يقال له: فاس الصغيرة، كأنها سميت بذلك لاقتران أسماء خلالها كمدينة فاس، وبالضفة الشرقية من الوادي قسم يقال له: الجنان الصغير، وقسم يسمى بني أبي نواس، وقسم يسمى حارة بني زغبوش، وحارة الزغابشة، وثم كانت ديار بني محمد بن حماد وغيرهم، وكان ببني زياد حمام وببني مروان حمام يعمران، وكان ببني موسى حمام تعطل قبلهما، والله تعالى أعلم.

وكانت هذه المواضع كلها في غاية من الخصب وكثرة المياه والأشجار، وكان أهلها آمنين مطمئنين في عيش رغد ونعمة تامة منذ ملك أمراء المسلمين بنو تاشفين [بلاد المغرب][3]، «وأغمد الله تعالى بسيوفهم نار الفتنة البربرية»[1]،

---

(١) ذكر في نسخة (ب) «يقال» وليس كما ذكر في كافة النسخ الأخرى «يسمى»، والأصح «يسمى» كما ذكر في باقي الكلام.

(٢) «عالٍ جدًّا» غير موجود في نسخة (د)، نسخة (ج).

(٣) [بلاد المغرب] ذكر في نسخة (د، ب، أ) ولم يذكر في باقي النسخ.

فانقطعت مطالع رءوس النفاق من بربر المغرب.

قيل ولم يكن لهذه الحوائر قديمًا مدينة مسورة، وكان واليها يسكن قصرًا أدركه القدماء [خرابًا][٢] يعرف بقصر ترزجين[٣]، ولعل جيمه معقودة، وهو على ربوة من الأرض شرقًا من بني زياد وغربًا من وادي فلفل وجوفًا من المدينة الآن.

فلما ظهر أمر الموحدين أحدث المرابطون على الوادي المذكور غربًا منه حصنًا سموه «تاجرارت»[٤] بالجيم المعقودة، وكذلك بقي اسمه، وتفسير هذا اللفظ المحلة أو المجتمع بلسان البربر، هكذا قيل[٥]، وهذا الحصن هو المدينة «الموجودة» لهذا العهد[٦]، فما أخذوا في بنائها اجتهدوا فيه أعجلهم الأمر حتى احتاجوا على ما يحكى إلى إقامة شقة من سوره بالأهرية المتخذة من الدوم لادخار الأطعمة، ويسمى

---

(١) ما بين التنصيص غير موجود في نسخة (أ) ونسخة (و).

(٢) ذكر في نسخة (و) «خربًا» والأصح كما ذكر «خرابًا».

(٣) ذكر في نسخة (و) «ترزكين» وفي باقي النسخ «ترزجين» وهذا الأصح، وذكر في نسخة (هـ) «تؤزجين».

(٤) اختلف الجغرافيين في هذا الاسم، فذكر في نسخة (و) «تكرارت»، وذكر في نسخة (هـ) «تاجدارت»، وباقي النسخ كما بينا في النص، وذكر الإدريسي في: نزهة المشتاق (١/ ٢٤٤) «تاقررت» اسم مكناسة، وعند الحميري في: الروض المعطار «تاجرارت» هي حصن بُنِيَ محل مدينة مكناسة القديمة عام (٥٤٥هـ-١١٥٠م) وأيضًا كان تخريب مكناسة القديمة. انظر: ابن زيدان: إتحاف أعلام الناس (١/ ٩٠-٩١).

(٥) أشار ابن غازي بقوله: «هكذا قيل» ومعني هذا أنه لم يجزم في هذه التسمية بلسان البربر، كما نجد ابن زيدان يذكر، وتفسير تاجرارت بالمحلة في لسان البربرية جزم ابن خلدون في تاجرارت التي حوز تلمسان، فلعل ابن غازي إليه أشار بقيل، وكذلك جزم بذلك الزياني وهو من علماء البربر بعدم وجوده في لسانهم، وأنهم يقولون: المحلة، وبعضهم يقول: تمحلت. انظر: إتحاف أعلام الناس (١/ ٨٥).

(٦) ذكر في نسخة (هـ) كلمة «اليوم» مع كلمة «لهذا العهد». والأصح كما ذكر في النص.

واحدها بلسان البربر أسكل[١]، وملئوها ترابًا، وقاتلوا دونها حتى أكملوا البناء بعد ذلك.

وفي القطر الغربي من أبراج سورها برج مبني بالحجر والجير بناء محكمًا يسمى برج ليلة، سمي بذلك لأنه بني من ليلته فيما زعموا، ونقل الوالي يدر بن ولجوط[٢] -بالجيم المعقودة- إلى المدينة المذكورة وجوه الناس وأغنيائهم، ولم يترك من الأقوات شيئًا إلا نقله إليها، وترك جمهور الناس في مواضعهم، فأول غارة شنها الموحدون على تلك الأرض بسوق الغبار يوم الأحد؛ وذلك أنه لما وضعت هذه الموضوعات على الصفة المذكورة من التفرق كانت لهم سوق غبار بإزاء قصر ترزجين[٣] المتقدم الذكر، وهو الذي يسمى بالسور القديم -بالراء- أو بالسوق القديم -بالقاف- كما يجري على ألسنة الناس اليوم، ومسجد الحصن المذكور وصومعته لا يزالان[٤] قائمين لهذا العهد.

وكان أهل القصر وأهل الحواثر يجتمعون إلى تلك السوق كل يوم أحد، فبينما هم يوم أحد قد اجتمعوا وكملوا بالسوق المذكورة وهي بأرض مرتفعة إذ أشرفوا على خيل مقبلة إليهم في زي المرابطين: اللثم والغفائر القرمزية، والمهاميز

(١) أسكل: إطلاقها علي مفرد الأهرية المتخذة من الدوم، فجزم بعدم وجود هذا اللفظ عندهم. انظر: ابن زيدان: إتحاف أعلام الناس (١/ ٨٦).

(٢) يدر: بتشديد الدال وسكون الراء فهو لفظ بربري معناه بالعربية يعيش، ولجوط: لفظ بربري معناه بالعربية الشجاع، والمعنى يعيش بن شجاع. انظر: ابن زيدان: إتحاف أعلام الناس (١/ ٩٣). وذكر في نسخة (و) بدر.

(٣) هذا الأصح وليس كما ذكر من قبل.

(٤) لا يزالان: ذكرت في كافة النسخ بهذه الصيغة إلا نسخة (أ، هـ) وابن زيدان ص٨٦؛ حيث ذكرت لم يزالا.

التاشفينية، والسيوف والمحلاة[١]، والعمائم ذوات الذؤابات، فلما رأى القوم هذا الزي قالوا: تقوية السلطان[٢] جاءتنا، وسارعوا للقائهم فرحين بهم، وهبطوا عن آخرهم، فلما خرجوا عن منع القصر[٣] والسوق حسر الفرسان اللثم ونادوا: أبابا يا المهدي! وكان ذلك شعارهم وأجالوا السيوف عليهم، «ولم ينج واحد منهم فيما ذكر»[٤] وكانوا آلافًا رحمهم الله، وما زال «الناس لهذا العهد»[٥] يتحدثون أن المقابر عند باب «مسجد»[٦] السوق «القديم»[٧] هي مقابر شهداء، فلعلهم هم، والله تعالى أعلم.

وكان الموحدون حينئذ يسمون الناس المجسمين، ويقاتلونهم قتال كفر، وكان الناس[٨] يسمونهم الخوارج[٩]، ولم تزل الغارات تشن عليهم فيقتل الرجال وتسبى النساء والذرية وتستباح الأموال، والتضييق يتوالى والمكائد تدبر والحيل تدار حتى ضاق ذرع الناس بكثرة الوقائع عليهم.

---

(١) «المحلاة» ذكرت في نسخة (أ) «المحلات».

(٢) السلطان هو تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني أبو المعز أمير المسلمين، بويع بعد وفاة والده عام (٥٣٧هـ-١١٣٨م) بعهد منه، وكان أمر الموحدين قد ظهر يومئذ بالمغرب فكانت أيامه كلها حروب مع عبد المؤمن الموحدي، وتوفي عام (٥٣٩هـ-١١٤٠م). انظر ابن الخطيب: الإحاطة (١/ ٤٤٦-٤٥٤).

(٣) أجمعت أغلب نسخ المخطوطات، وكذلك ابن زيدان علي ذكر «القصر» كما في المتن، ولم يخالف في ذلك إلا نسخة (هـ).

(٤) ما بين التنصيص ذكر في نسخة (أ)، ونسخة (ج) بصيغة «لم ينج منهم فيما ذكر أحد».

(٥) «لهذا العهد» غير موجودة في نسخة (د).

(٦) «مسجد» غير مذكورة في نسخة (د).

(٧) «القديم» غير مذكورة في نسخة (د).

(٨) انظر ابن زيدان: إتحاف أعلام الناس (١/ ٨٧).

(٩) الخوارج؛ أي: المخالفين للمهدي.

ومن الأخبار التي كانت مشتهرة عن أهل الوطن أنه كان بأحواز[١] تاورا شجرة كبيرة من النشم الأسود المسمى «بالتغصاص بإشمام الصادين زايين وربما يكتبه المتفاصحون»[٢] التقصاص بقاف وصادين، فبينما الناس[٣] قد انبسطوا لتدبير أشغالهم ومعاشهم إذ فاجأتهم الخيل وأحاطت بهم، فلجئوا[٤] إلى تلك النشمة وظنوا النجاة فيها، فتعلق بها منهم خلق كثير، وضم الموحدون الحطب لتلك الشجرة وأضرموا النيران حولها، فسقط كل من كان فيها واحترقوا عن آخرهم، واحترقت النشمة وبقيت منها بقية مدة من الزمان، وكانت عند أهل الأوطان من جملة مواعظ تلك الفتنةِ.

فما فتحت [مدينة][٥] فاس للموحدين[٦] عام أربعين وخمسمائة وانتقلوا إلى مكناسة الزيتون[٧]، وبينهما ما يقرب من أربعين ميلًا، ونزلوا عليها بمحلتهم وخندقوا عليها خنادق، وزعموا أنها سبعة خنادق ليحصنوا بها محلتهم[٨]؛ خوفًا من معرة أهل البلد «لما علموا من جرأة أهل البلد»[٩] وشجاعة عاملها يدر بن ولجوط[١٠].

---

(١) ذكر في نسخة (د، ج) «في أحواز».

(٢) ما بين التنصيص غير موجود في نسخة (ج) وموجود في باقي النسخ.

(٣) غير موجودة في نسخة (أ).

(٤) في نسخة (أ) ذكر «فلحقوا» وليس «فلجئوا» كما في النص.

(٥) ذكر في نسخة (أ، د) «المدينة».

(٦) ذكر «الموحدين» غير موجودة في نسخة (د).

(٧) كلمة «الزيتون» زيادة في نسخة (د).

(٨) غير موجودة في نسخة (أ، ب).

(٩) ما بين التنصيص غير موجود في نسخة (أ).

(١٠) «ولجوط» كما ذكرنا من قبل.

وذكر أبو زيد ابن خلدون[١] في كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر [ومن عاصرهم][٢] من ذوي السلطان الأكبر: أن عبد المؤمن بن علي[٣] لما فتح فاس ترك بعض عماله محاصرًا لمكناسة، وانصرف هو إلى

---

(١) ابن خلدون: هو عبد الرحمن بن محمد الحضرمي، ولد بتونس عام (٧٣٢هـ-١٣٣١م) وبها نشأ ودرس، وتولى خططًا وأعمالًا لسلاطين حفصيين ومرينيين وزيانيين ونصريين بغرناطة، واعترضته دسائس ووشايات، فسافر إلى الشرق بحجة أداء فريضة الحج، وعندما رجع استقر في مصر، وأكرمه السلطان الظاهر برقوق (٧٨٤-٨٠١هـ/ ١٣٨٢-١٣٩٨م) حيث عُين قاضيًا على المذهب المالكي، وأُرسل في سفارة تيمور لنلك عام (٨٠٣هـ-١٤٠٠م).
وكان لأسفاره واتصاله بعدد من الملوك مثل ملوك النصارى بالأندلس وملوك التتار بالشام فضل في تكوين فلسفته التاريخية، وتوفي بالقاهرة في (١٩ رمضان ٨٠٨هـ) الموافق (١٦ مارس ١٤٠٦م) له عدة مؤلفات في المنطق والحساب والتاريخ، وأهم هذا كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ... وهو يضمن المقدمة فلسفته في التاريخ، وفيها يحاول أن يفسر الظواهر التاريخية تفسيرًا اجتماعيًا شاملًا.
للمزيد انظر: ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة (١٩٥١م) ص١٥-٣٥، ابن الأحمر: نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان، ص٢٩٧، ٢٩٨.

(٢) ناقصة من كافة النسخ.

(٣) عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى الكومي، ولد عام (٤٨٧هـ-١٠٩٤م) بتاجرا قرية بساحل تلمسان من أبوين فقيرين، وحفظ القرآن الكريم، ثم انتقل إلى تلمسان، فأخذ العلم عن فقهائها وعلمائها، ثم عزم على الرحلة للشرق للحج وطلب العلم، فالتقى في الطريق قرب بجاية بالفقيه محمد بن تومرت الهرغي الذي عرف فيما بعد بالمهدي وهو عائد من الشرق بعلم غزير، فرجع معه إلى المغرب الأقصى، وشرعوا في تأسيس حركتهم التي انتهت بالقضاء على الدولة المرابطية، ولما مات المهدي بن تومرت عام (٥٢٤هـ-١١٢٩م) بويع عبد المؤمن البيعة العامة بجامع تينملل، ونهض لمحاربة المرابطين، وتلقب بأمير المؤمنين، ولم يزل ينتقل من نصر إلى نصر حتى قضى على خصومه، وأنشأ الدولة الموحدية التي حكمت مملكة ممتدة حدودها من مصر شرقًا إلى البحر المحيط غربًا، ومن قلب الأندلس شمالًا إلى السودان جنوبًا. =

حضرة مراكش[١] [انتهى][٢]، فحاصروا مدينة مكناسة سنين [وانتهى الحصار][٣] وأشهرًا[٤]، قيل: [إلى][٥] السنين سبع، وقيل: أربع، ولا خلاف في أربع [وأشهر][٦]، وإنما الخلاف في الزائد عليها، وكان بعض من يغلو[٧] في مدة الحصار يقول: سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام، والله تعالى أعلم[٨].

= وتوفي عبد المؤمن عام (٥٥٨هـ-١١٦٢م) في طريقه إلى الأندلس مجاهدًا، وحملت جثته إلى تينملل، ودفن بجوار شيخه المهدي. انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت (١٩٧٨م) (٣/ ٢٣٧-٢٤١)، ابن القاضي: جذوة الاقتباس، قسم٢، ص٤٤٦-٤٤٧.

(١) مراكش: مدينة بناها يوسف بن تاشفين عام (٤٧٠هـ-١٠٧٧م) وقيل: (٤٥٩هـ-١٠٦٦م) اشترى أرضها من أهل مدينة أغمات، اختطها له ولبني عمه، وهي في وطأة من الأرض، ولا يوجد جبال حولها سوى جبل إيجليز، ومنه قطع الحجر الذي بني به قصر علي بن يوسف أمير المسلمين الذي استخرج المياه فكثرت البساتين، ثم بني سورها، ثم انتقل الحكم إلى الموحدين، فأكثروا بها السقايات والقصور والمنازل إلى أن اتسعت مراكش فكانت أكبر مدن المغرب، وبنيت فيها الفنادق والحمامات، وأقيم فيها قيسارية عظيمة البنيان، وكثر بها شجر الزيتون أكثر من زيتون مكناسة، وزيتها أرخص وأطيب.

وهوائها طيب لذلك بنى بها مارستان للمرضى، واستدعى العلماء ورواة الحديث وأهل الفنون المختلفة، وقصدها التجار من كل جهة، وصارت حاضرة المغرب وقاعدة البلاد، وتناهت ضخامتها وانقادت إلى طاعتها أقاليم المغرب والأندلس وغيرها، إلى أن اختلت الأحوال ووقعت الفتن، وفشا فيها الظلم والفجور. انظر الحميري: الروض المعطار، ص٥٤٠-٥٤١، مجهول: الاستبصار، ص٢٠٨-٢١٠، ياقوت: مصدر سابق، (٥/ ٩٤، ٩٥).

(٢) زيادة في نسخة (أ).

(٣) [وانتهى الحصار] زيادة في نسخة (أ).

(٤) «وأشهرًا» غير موجودة في نسخة (أ).

(٥) «إلى» ذكرت في نسخة (أ).

(٦) [وأشهر] ذكرت في نسخة (د)، ولم تذكر في نسخة (أ).

(٧) قيل: «بلغوا» في نسخة (أ).

(٨) وحول مدة الحصار وُجد إشكال رده ابن غازي، فقال: هذا كلامهم في هذا المحل، ولي فيه إشكال=

وحين نزل الموحدون مدينة فاس كان بها من أهل تاورا أبو محمد[1] عبد الله بن محمد بن حماد بن محمد بن زغبوش يقرأ، وسنه يومئذ نحو خمس وعشرين سنة، فتشوق أحد الأيام للإشراف على محلة الموحدين، فخرج من مجلس القراءة وسط النهار، وقد انصرف الناس إلى ديارهم والأسوار خالية إلا من حراسها، فطلع

= وهو أن حصار سبع سنين أو أربع إن كان على مكناسة القديمة التي أفصح ابن غازي بأنها كانت حواشر غير ممدنة ولا مسورة، فحصار ما كان بهذه الصفة من عدم التحصين لا يستدعي تطويل المنازلة إلى هذه السنين، لاسيما الحواشر في محل ليس بمنيع؛ إذ لا تحول دون المنازلة عقبة كئود ولا جبل عالٍ شديد؛ كيف وقد قتل منازلوهم منهم في أول غارة شنوها عليهم ألوفًا متعددة في ساعة واحدة كما سبق عن ابن غازي؟!

زد على ذلك ما ذكره واصفو هذا الحصار من أن الموحدين خندقوا على مكناسة في حصارهم إياها خنادق متعددة، ولا خفاء أن عيش أهل مكناسة على كثرتهم طول تلك المدة مع هذا الحصار الموصوف بعيد؛ لأن ذلك الطول يهلك الزرع، والظهر والضرع، وسائر ضروريات العيش، ومن المعلوم أن الثروة التي تحمي صاحبها من الهلاك مع الطول إنما توجد في كل زمان عند بعض الأفراد لا عند عموم الناس، ولا عند جمهورهم، ثم لو فرضنا أن أولئك الأفراد شركوا العموم في منافع ثروتهم، فإن ذلك مع انقطاع المادة يئول عن قريب بالجميع إلى الإفلاس فأنى يتأتى والحالة على هذا الخلاص لمقاومة ذلك الطول.

وإن كان الحصار على المدينة الجديدة المحصنة؛ وهي تاجرارت كما يصرح بذلك كلام ابن غازي الآتي، فقد سبق عن ابن زرع أنها فتحت في العام الذي بنيت فيه، فأين كانت حينئذ مدة حصار سنة كاملة فضلًا عما زاد عليها؟! ثم كلام ابن غازي خالٍ من الترتيب، بعيد عن التحرير والتهذيب؛ فإنه ذكر أولًا بناء تاجرارت، وأن القتال وقع قبل إكمال سورها، وهذا يقتضي أنها بنيت كلًا أو بعضًا وقت الحصار، ثم ذكر قضية السوق القديم بعدها وهي دالة على أن أهل مكناسة وقتئذ لم يكونوا على أهبة قتال ولا استعداد لحرب، وهذا لا يتأتى إلا قبل الحصار وهو خلاف ما دل عليه ما سبق من كلامه، وكذا هذا التنافر واقع بين ما ذكره في قضية النشمة وما قدمه في بناء تاجرارت، ولو قدم حكاية السوق القديم والنشمة على حكاية تاجرارت لسلم من هذا التدافع، فتأمل ذلك كله. انظر: إتحاف أعلام الناس (١/ ٩١-٩٢).

(١) «حمد» في نسخة (هـ).

السور ليطلع منه عليهم، فبينما هو يمشي على السور حدثته نفسه بالهبوط إليهم، فارتاد موضعًا خاليًا خفيًّا عن الحرس، وربط عمامته في إحدى شرفات السور، وتقلد خريطة كتبه، وتعلق بالعمامة وكانت ضعيفة فلما ثقلت انقطعت وسقط [على][1] الأرض، واعتلت إحدى قدميه.

وتسارع إليه الموحدون ورفعوه في دوقة ووضعوه بين يدي عبد المؤمن بن علي، وأكرمه الموحدون وأحسنوا إليه، وكتب له عبد المؤمن صكًّا بتوسيع ماله ومال أبيه، وأقام معهم يظعن لظعنهم ويقيم لإقامتهم مبررًا ليدهم عزيزًا عليهم، وكانوا يلحظون من يمت إليهم بسابقة أو هجرة، فلما نزلوا مكناسة ظهر عبد الله بن زغبوش المذكور بمحلتهم، واتصل ذلك بالوالي يدر بن ولجوط[2]، فقبض على أبيه محمد بن حماد[3] في سبعة من قرابته أو مع سبعة منهم، وكان محمد هذا فقيهًا خيرًا قرأ بقرطبة[4] وبغيرها، وصحب جلة من أهل زمانه، «ووثقهم»[5] [يدر] بن[6] ولجوط[7] في دار وجعل عليهم حراسًا، ولم يمنع عنهم الزوار، واشتد [عليهم][8]

---

(١) ذكر في كافة النسخ «في» ولكن الأصح كما ذكر في النص.

(٢) تذكر كل النسخ ذلك ما عدا نسخة (و) تذكر يدر بن ولكوط.

(٣) محمد بن حماد: انظر تعريفه بالروض الهتون، ص٧٨.

(٤) قرطبة: أعظم مدن الأندلس وليس لها في المغرب شبيه في كثرة الأهل وسعة الرقعة، وهي حصينة بسور من حجارة، ولها بابان مشروعان في نفس السور إلى طريقة الوادي من الرصافة، والرصافة مساكن أعلى البلد متصلة بأسفله من ريفها وأبنيتها متشابكة محيطة من شرقيها وشماليها وغربها وجنوبها، فهو وادٍ بها وعليه الرصيف المعروف بالأسواق والبيوع ومساكن العامة، بربضها وأهلها. للمزيد انظر: ياقوت الحموي: مصدر سابق، (٤/ ٣٢٤).

(٥) ذكرت في كل النسخ «وثقفهم» والأصح كما ذكر في النص.

(٦) «ابن» غير موجودة في (أ، ب).

(٧) ذكر «ولكوط» في نسخة (هـ) والأصح كما ذكر في باقي النسخ «ولجوط».

(٨) ذكرت في نسخة (ب).

الحصار، وتمادوا وهم [موثقون][١] إلى أن أصبحوا مقتولين ذبحًا وفي دار [نقب نفذ السور][٢]، فقيل أنهم راسلوا[٣] عبد الله المذكور في أن يأخذ له عهدًا أو [يتحيلوا][٤] في الخروج.

وقيل: إن جماعة من الموحدين أصبحوا في ذلك اليوم قريبًا من النقب ينتظرون خروجهم، فقيل: حتى يئسوا، وقيل: حتى علموا بقتلهم، وقيل: إن ذلك النقب كان من فعل الوالي بعد قتلهم ليقيم بذلك عند الناس حجته في قتلهم، وذكر بعض الناس أن هذه الرواية أقرب من الأولى؛ لأن والد عبد الله لم يكن [عنه راضيًا][٥] في هجرته إليهم، وزعم أهل الرواية الأولى أن سبب عزمهم على الخروج بالوالي [كان][٦] أن أحدهم كانت زوجه من قوم كانوا عدوًا لهم، فزارته فعرفها بعزيمتهم ثقة منه بها، فأخبرت بذلك أخاها رجاء أن يخرج معهم ويخلص بنفسه، وحضته على ذلك إشفاقًا منها عليه، فثارت عداوته وأمكنته الفرصة فيهم؛ فوشى بهم إلى الوالي يدر بن ولجوط[٧]، فنفذ فيهم حكم الله سبحانه.

حكي أنه دخل عندهم أمس اليوم الذي أصبحوا فيه مقتولين شاب من أخوال أحدهم من بني علالة، وكان حسن الصوت حافظًا لكتاب الله العزيز مجيدًا لقراءته، وكانت عادته إذا دخل عليهم يؤنسهم بقراءة القرآن، فسألوه في ذلك اليوم

---

(١) ذكرت في كافة النسخ «مثقفون» والأصح كما ذكرناها في النص.

(٢) ذكر في نسخة (أ) [ثقب بعد للسور].

(٣) ذكرت في نسخة (أ، ب) «أرسلوا».

(٤) ذكرت في نسخة (د) «يتحيلون».

(٥) ذكرت في نسخة (هـ ب، أ، ج) [راضيًا عنه].

(٦) لم تذكر إلا في نسخة (هـ د، هـ) وباقي النسخ لم تذكر فيهم.

(٧) ذكرت في نسخة (هـ) «يدر بن ولكوط».

قراءة عشر فقرأ: {اقتربت الساعة}[١] فكان ما ذكر من حكم الله فيهم، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

وبقي الجيش محاصرًا للمدينة وصاحب المدينة يبالغ في نكاية الموحدين والنيل منهم، والخنادق لا تغني عن محلتهم شيئًا، ذُكر أنهم حفروا أول خندق قريبًا من المدينة، فضيق عليهم المرابطون ومن معهم في المدينة حتى رجعوا وراءهم، وخندقوا آخرهم ولم يزالوا كذلك يضيقون عليهم ويرجعون وراءهم ويخندقون حتى أكملوا سبعة، وأمر الموحدين يستوثق وينتشر ويزيد ظهورًا، والقبائل تتابعهم وتتوافد عليهم أفواجًا والفتوح تتناسق، وسكان الجبال ينزلون عليهم من صياصيها مذعنين، حتى إن من [نظر][٢] مكناسة [وضواحيها][٣]، جبلًا [كبيرًا][٤] مانعًا خصيبًا يقال له: «جبل»[٥] زرهون وفيه من الخلق أمة كثيرة لا تحصى عدة أرسلوا [ببيعتهم][٦] مع جماعة منهم إلى عبد المؤمن بن علي وهو يومئذ بين الصخرتين من أحواز تلمسان، وجرءوا الموحدين على دخول المغرب، وأعانوهم على محاصرة مدينة مكناسة [الزيتون][٧]، فكانوا أبدًا مبغضين لأهل تلك البلاد، وكانوا بسبب سبقهم أحرارًا من المغارم، كتب لهم بذلك صكوكًا كانت بأيديهم، ولم يتعرض لأموالهم كما فعل بالأملاك التي أُخذت عنوة.

---

(١) سورة القمر: آية ١.

(٢) في نسخة (هـ) ذكر «قطر».

(٣) قيل في نسخة (أ، ج، هـ و) «ونواحيها».

(٤) ذكر في نسخة (هـ) «كثيرًا».

(٥) ذكر «جبل» لصياغة الجملة.

(٦) ذكر في نسخة (هـ ب) «بيعتهم».

(٧) ذكر في نسخة (د) «الزيتون»، ولم تذكر في باقي النسخ.

لكنهم كلفوا آخرًا من الكلف الطارئة ما لم يكن لهم بحمله طاقة ولم ينفعهم بدارهم، وكان ظلمة العمال يسمون هذا الجبل جبل الذهب، ويذكر أن أصل أهله روم، وبأسفله على اثني عشر ميلًا من مكناسة بموضع يقال له تازجا[١] أثر بناء عتيق ضخم يسمى قصر فرعون، وكان ثَمَّ سوق غبار يجتمع فيها يوم الأربعاء، وتنسب هذه السوق لوليلي، ويذكر أن وليلي كان ملك الروم، [وكان][٢] له هناك تلك المدينة وهي كانت حاضرة تلك البلاد، كذا ذكر بعض المؤرخين.

ولما استولى الفتح على المغرب شمل مدينة وليلي وغيرها، وبها نزل السيد الطاهر النقي التقي إدريس بن عبد الله[٣] رضي الله تعالى عنه [ونفعنا

---

(١) يطلق اليوم هذا الاسم على الجهة العليا الغربية التي تقع عن يمين الداخل إلى زرهون من باب الحجر أحد أبوابها، وما نزل عن الباب المذكور خارجًا عنها يسمى «تحت تازجا» وهو وخيير بعيدان عن وليلي، وربما كانت عمارتها متصلة بها في القديم. انظر: ابن زيدان: إتحاف أعلام الناس (١/ ٣٣).

(٢) لتعديل النص حذفت «وكانت» وذكرنا «وكان».

(٣) إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، مؤسس الدولة الإدريسية أول دولة عربية شيعية قامت بالمغرب الأقصى، ولد بالمدينة المنورة ونشأ، ولما دعا أخوه محمد النفس الذكية لنفسه بالخلافة ضد الهادي (١٦٩هـ-٧٨٦م) قامت بينهما موقعة ففر من هذه الموقعة إدريس بن عبد الله بصحبة مواليه راشد إلى مصر، فتلقوا مساعدة عامل البريد الذي سهل لهم عملية الهروب التي استمرت سنتين، وأخيرًا وصل إلى أوليلي على قبيلة أوربة التي أجارته وأكرمته.

واجتمع عليه البربر لما عرفوه فقاموا بدعوته وخلعوا طاعة بني العباس، ونادوا به إمامًا يوم الجمعة ٤ رمضان عام (١٧٢هـ-٧٩٠م) وخرج بجيوشهم غازيًا ففتح المغرب ومكن الإسلام فيه، ودخل تلمسان وبنى بها مسجدًا، وامتدت سلطته إلى ما وراء شلف بالمغرب الأوسط، وقتل مسمومًا بمدينة أوليلي عام (١٧٥هـ-٧٩١م) تاركًا زوجته البربرية حامل فوضعت له بعد شهرين طفلًا سمي بإدريس بن إدريس بن عبد الله، وقبر إدريس بن عبد الله بجبل زرهون. انظر الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار المعارف، مصر، (٨/ ١٩٢-٢٠٤)، ابن خلدون: العبر، =

به][1] على شيخ أوربة[2] حسبما في تاريخه، فلما رأى الموحدون انقياد الناس إليهم وتوالي الفتوح عليهم احتقروا حصن مكناسة واستطالوا مدة إقامة الجيش، وظنوا بصاحب الجيش تقصيرًا، وبعثوا عبد المؤمن بن علي أحد عظماء الموحدين ليطلع على ذلك، فوافى الجيش وعاتب أميره واستنقص جده وحقر الحصن وأميره، فأرسل أمير الجيش إلى أمير المدينة يدر بن وجلوط[3] ويخبره بما لقي من الواصل إليه، وسأل منه عملًا تقوم له به الحجة عليه.

فبينما الموحدون قد اجتمعوا للقتال وهم يتفاوضون في كيفيته، ويتواصون بالعزم والصبر، إذا بباب المدينة قد فتح لعشرة من الفرسان [واندفعوا][4] كأنهم الطير سرعة، أو الرعد صولة، وضربوا في الجيش، وتبعهم عشرة بعد عشرة إلى أن كملوا خمسين، ونالوا من جيش الموحدين نيلًا عظيمًا، فرأى الواصل من إقدامهم وجرأتهم وقوة شوكتهم وشدة بأسهم ما هاله، فقال بلسان المصامدة: (ذأ امطيرايا) ومعناه هذا عجب، وظهر عز أمير الجيش فيما ظن به من التقصير.

= (٤/ ١٧)، البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقيه والمغرب، مكتبة المثنى، ص١١٨، ابن عذاري: البيان المغرب (١/ ٨٢، ٨٣-٢١٠)، ابن الخطيب: أعمال الإعلام، ص١٩١، ابن القاضي: جذوة الاقتباس، قسم ١، ص١٦-١٨.

(١) زيادة في نسخة (ب).

(٢) شيخ أوربة: هو إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوروبي، استقبل إدريس عام (١٧٢هـ-٧٨٧م)، ولما عرَّفه إدريس بنفسه أنزله معه في داره، وقام بشئونه عدة شهور حتى حل شهر رمضان من السنة، فجمع إخوته وزعماء قبيلة أوربة، فعرفهم بنسب إدريس وبفضله وقرابته من النبي (ص) وشرفه ودينه، فرحبوا به قائلين: «إنه سيدنا ونحن عبيد فيما يريده منا» قال: «تبايعونه» قالوا: «سمعًا وطاعة إمامنا من يتوقف عن بيعته» فبايعوه بمدينة أوليلي. انظر ابن خلدون: العبر، م٦، ص١٧٢، إسماعيل العربي: مرجع سابق، ص٦٤.

(٣) ذكر في نسخة (و) «ولكوط».

(٤) في كافة النسخ «ودفعوا» وللصياغة كتب كما في النص.

وتمادى الحصار واشتد التضييق وفنيت الأقوات، واضطر الناس إلى أكل خيس الحيوان حتى عدم كل ذلك، وهلك الناس قتلًا وجوعًا، وفتحت البلاد للموحدين بالمغرب والأندلس طوعًا وعنوة، ومات الأمير تاشفين[1] بن أمير المسلمين علي[2] بن يوسف بن تاشفين[3] ----------=

---

(١) تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين: أمير المسلمين ثالث سلاطين الدولة المرابطية، كان بطلًا عظيمًا ذا نجده وحزم ودين، ولاه أبوه على جهات من الأندلس، فنظر في مصالحها وظهر في حروبه على النصارى فذاع صيته وحسن ذكره، فغار منه أخوه الأمير سير بن علي ولي العهد بإشارة الأم، فاستقدم تاشفين إلى مراكش، فصار من جملة من يتصرف بأمر أخيه سير ويقف ببابه كأحد حجابه، ولما توفي أخوه أسندت إليه ولاية العهد باستفتاء شعبي بالمسجد، قال الحاضرون بصوت واحد تاشفين، فقضى أيام ولاية العهد في محاربة الموحدين، ولما توفي أبوه السلطان علي يوم (الأربعاء ٧ رجب ٥٣٧هـ-٢٦ يناير ١١٤٣م) صار إليه الأمر والدولة في ليلة (٢٧ رمضان ٥٣٩هـ-٢٣ مارس ١١٤٥م). انظر ابن الخطيب: الإحاطة، (١/ ٤٤٦-٤٥٤). ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، تحقيق: عبد الهادي التازي، بيروت (١٩٧٩م)، ص٤٣٣، ٤٦٦، ٤٦٧، ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٨٩، ١٩٠.

(٢) علي بن يوسف بن تاشفين، ولد بسبتة عام (٤٧٧هـ-١٠٨٤م) وبويع بمراكش بعد وفاة والده العظيم عام (٥٠٠هـ-١١٠٦م) بعهد منه، واجتاز الأندلس مجاهدًا، فانتهى إلى قرطبة وفتح طلاموت ووادي الحجارة ومجريط (مدريد) وسبعة وعشرين حصنًا من أعمال طليطلة، وكانت له مع النصارى معارك حاسمة كان له النصر فيها، وفي أيامه ظهر المهدي بن تومرت، وظهر عبد المؤمن بن علي ظهورًا آذن بانقضاء أجل دولته، فاضطربت أموره ومات غمًا بمراكش عام (٥٣٧هـ-١١٤٢م) وكان رجلًا عظيمًا وقورًا صالحًا عادلًا. انظر ابن خلدون: العبر، م٦، ص٣٠٥. ابن عذاري: مصدر سابق، (٤/ ٧٥)، ابن الخطيب: أعمال الإعلام، قسم ٣، ص٢٧٠، ابن القاضي: جذوة الاقتباس، قسم ٢، ص٤٥٩-٤٦٠.

(٣) يوسف بن تاشفين اللمتوني الصنهاجي الحميري أمير المسلمين باني مدينة مراكش، ولد عام (٤٠٠هـ-١٠٠٩م) واستخلفه ابن عمه أبو بكر بن عمر على المغرب (٤٦٣هـ-١٠٧٠م) فاستقل به، وأنجد المستغيثين به من أمراء الأندلس، فاجتاز إليها مجاهدًا وهزم الجيوش النصرانية في موقعة الذلاقة الشهيرة عام (٤٧٩هـ-١٠٨٦م) وبايعه بعدها من شهدها معه من أمراء الأندلس وعددهم =

=ملك[١] المرابطين ساحل تلمسان على الصفة المشهورة[٢]، وقد ذكرها ابن خلدون وغيره.

ولم يبق للموحدين مناوئ ولا منازع، ويئس يدر بن ولجوط[٣] من «النصر»[٤]، ولم يكن له بالضبط طاقة، فطلب النجاة بنفسه وأهله[٥] ومن بقي من فرسانه خاصة، وأسلم المدينة ومن فيها من بقايا المنحصرين للردا، وخرج في خمسين فارسًا «على ما ذكر»[٦]، ودخل الموحدون المدينة فسفكوا الدماء وسبوا النساء والذرية واستباحوا الأموال، وتمادوا على ذلك يومًا كاملًا، ونادى مناديهم في آخر

= ثلاثة عشر أميرًا.

ثم أخضع الإمارات التي لم تبايعه لما رأى من تلاعب أمرائها وتواطئهم مع النصارى، فتم له السيطرة على الأندلس كما شمل سلطانه الصحراء وجل المغرب الأوسط، وكانت وفاته بمراكش عام (٥٠٠هـ-١١٠٦م) وبها دفن. انظر ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٤٠-١٤٣، ابن عذاري: مصدر سابق، (٤/ ٢٩-٣٠، ابن خلدون: العبر، م٦ ص١٨٥، السلاوي: مصدر سابق، (١/ ١٠٨-١١١، ابن القاضي: جذوة الاقتباس، قسم ٢، ص٥٤٥-٥٤٦.

(١) لا يوجد ملوك في الإسلام بل سلطان.

(٢) خرج الأمير تاشفين في أواخر رمضان (٥٣٩هـ-١١٤٥م) ليتفقد بناه هنالك، ويتشوف على السفن العشرة التي أمر قائد أسطوله بالمرية أمير البحر محمد بن ميمون ليبعث بها إلى مرسى ذلك الحصن لتكون معدة لحادث يحدث فيه، وإن ألجأته ضرورة للجواز إلى الأندلس جاز، فعلم الموحدون بخروجه، فزحفوا على الحصن وحاصروه من كل مكان، وأشعلوا فيه النيران، فلما جن الليل خرج تاشفين يطلب النجاة بنفسه، فركب فرسه التي كانت تدعى بالريحانة، فتردَّت به من حافة بعيدة المهوى، ووُجد في الصباح ميتًا بأسفل الحافة. انظر البيذق: أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة، الرباط، المغرب (١٩٧١م)، ص٥٩.

(٣) «بدر بن ولجوط» والأصح كما في المتن.

(٤) ذكر كلمة «الفتح» في النسخ (د، هـ و) بينما لم توجد في (أ، ب، د).

(٥) ذكر في نسخة (ب) «أهله ونفسه».

(٦) «على ما ذكر» غير موجودة في نسخة (ج).

النهار برفع السيف، وعظم البلاء في ذلك اليوم على الناس، وكان ذلك في أول عام خمسة وأربعين وخمسمائة، وهي ثانية السنة التي توفي فيها القاضي «أبو الفضل»[١] عياض[٢]، بمراكش، وثالثة السنة التي مات فيها أبو بكر بن العربي[٣] بخارج فاس مسمومًا؛ وهو أبو يحيى المشهور مدفنه هنالك.

وكان نزول الموحدين على مكناسة في القول الصحيح آخر عام أربعين[٤]، فمدة الحصار على هذا أربع سنين وأشهر، وبقيت المدينة خالية إلا من فل الموت قتلًا وجوعًا، وتفرق ذلك الفل وانتثر عقد نظام الناس، وجلا بعضهم واشتغل

---

(١) «أبو الفضل» غير موجودة في نسخة (ب، د).

(٢) القاضي الشهير أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي عالم المغرب، وإمام أهل الحديث في وقته، ولد بسبتة عام (٤٧٦هـ-١٠٨٣م) وتوفي بمراكش عام (٥٤٤هـ-١١٤٩م) له تآليف كثيرة، أهمها الشفا بأخبار المصطفى، والغنية، وترتيب المدارك في معرفة أعيان مذهب مالك، ومشارق الأنوار، وغيرها، وقد جعله أبو العباس أحمد بن محمد المقري الأساس الذي بنى عليه كتابه الجليل أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. انظر أبي عبد الله محمد: التعريف بالقاضي عياض، تحقيق: محمد بن شريفة، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المغرب (١٩٨٢م)، ص١-١٣، ابن القاضي: جذوة الاقتباس، قسم ١، ص٣٦٠-٣٦٤.

(٣) أبو بكر بن العربي المعافري رحل للشرق عام (٤٨٥هـ-١٠٦٥م) فدخل الشام وبقي بها في موسم (٤٨٩هـ-١٠٩٥م) ثم رحل لبغداد، والتقى فيها بالإمام الغزالي وأبي بكر الشاشي وآخرين، ثم رحل للإسكندرية ولقي بها جماعة، ثم عاد للأندلس عام (٤٩٣هـ-١٠٩٩م) وتولى قضاة أشبيلية فكان من أهل الشدة على الظالمين والرفق بالمساكين، ثم ترك القضاة وأخذ في نشر العلم فتتلمذ عليه علماء أجلاء إلى أن توفي بالمغرب، ودفن بمدينة فاس عام (٥٤٣هـ-١١٤٨م). انظر ابن الزبير: كتاب صلة الصلة، تحقيق: عبد السلام الهراس، سعيد أعراب، المغرب (١٩٩٥م) قسم ٥، ص٤٠٣، النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع، بيروت، ص١٥٠-١٠٦، السلاوي: الاستقصاء (٢/ ٥٣)، سعيد أعراب: مع القاضي أبي بكر بن العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت (١٩٨٧م) ص٩-١٢٠.

(٤) أي: عام (٥٤٠ هـ-١١٤٥م).

بعضهم بطلب المعايش، وتعلقوا بالحرف والصنائع، وتملك الموحدون البلاد والأموال، وصار الناس عمارًا في أملاكهم يؤخذ[١] منهم نصف الفواكه الصيفية والخريفية، وثلثا غلة الزيتون، وكانت العادة إذا بدا صلاح الغلات يباع حظ المخزن[٢] منها حارة فحارة، وكان المشترون لها قومًا لا[أ][٣] خلاق لهم يقال لهم: القشاشون، فتستطيل أيديهم على حظوظ الرعية، ويضيقون عليهم حتى يبيعوا منهم حظوظهم بثمن بخس أو يشتروا منهم حظ المخزن غاليًا، فكان الناس من ذلك في جهد عظيم ومحنة شديدة لا يتجرأ أحدهم أن يقطف من ملكه حبة واحدة، ثم قوطعوا بعد ذلك على الفواكه، وخفف عليهم من شركة الزيتون.

وكان السبب في المقاطعة والتخفيف فرار الناس عنها بسبب الجور وتركها حتى تبورت، فصلحت بسبب المقاطعة أحوال الناس، ونمت أموالهم، وامتدوا في الأحياء والغراسات وعمرت المدينة والحوائر والبسائط، ونفقت الأسواق وقويت التجارة، وصار المسافرون ينزلون بالمدينة ويبيعون ويشترون[٤].

وكانت «في»[٥] المدينة بداوة، ثم تمدنت واكتسبت حضارة، «وزيد بعد (عام)[٦] الستمائة في جامعها الأكبر»[٧] زيادة ظاهرة، وجلب إليها الماء على ستة

---

(١) في أصل النسخ الخمس «يؤخذ».

(٢) المخزن: أي: مقر السلطة الحاكمة.

(٣) إضافة لتعديل صياغة الكلمة.

(٤) عندما تولى الموحدون أمر البلاد قاموا بإلغاء القبالات (وهي ضرائب غير شرعية) واستحلوا قتل المتقبلين لها. انظر الحميري: الروض المعطار، ص٥٤١.

(٥) غير مذكورة في نسخة (أ).

(٦) إضافة لفهم النص.

(٧) صيغت في نسخة (أ) «وزيد في جامعها الأكبر بعد الستمائة زيادة ظاهرة».

أميال من عين طيبة الماء عجيبة القدر بموضع يقال «له»[١]: «تاجما»[٢]، وأُجري الماء إلى الباب (الشرقي)[٣] الجوفي من أبواب الجامع وسمي باب «الحفاة»[٤]، وكان متصلًا بالباب الذي يسمى لهذا العهد باب الزرائعيين[٥]، وبنيت قريبًا من هذا الجامع دار للوضوء حفيلة على مثال دار الوضوء بفاس، وهذا كله في أيام الموحدين.

وكان بهذه المدينة في أيام الموحدين ثلاثة حمامات البالي[٦] والجديد[٧]، والصغير[٨]، وهي باقية لهذا العهد، وكان أحدث فيها أبو زكريا يحيى بن غنصاله[٩]

(١) ذكرت في كافة النسخ «له» ما عدا نسخة (و) ذكرت لها.

(٢) ذكرت في نسخة (ج)، ونسخة (د) «تاضمى».

(٣) ذكر في نسخة (ب) «الشرقي» ولم توجد في نسخة (أ).

(٤) ويسمى بالحفاة لقربه من باب الوضوء، وسير المصلين حفاة إلى صحن المسجد. انظر ابن زيدان: مرجع سابق، (١/ ٩٦) ذكرت في نسخة (د) «الحفات»، وفي نسخة (أ) «الحجات».

(٥) مسمى باب الزرائعيين فهو البويب الصغير المتصل بباب الحفاة القديم الشرقي المعد، هو أي: البويب المذكور لدخول المؤذنين ليلًا للمسجد. انظر: أعلام الناس (١/ ٩٧).

(٦) هو المعروف اليوم بحمام مولاي عبد الله بن أحمد. انظر: ابن زيدان (١/ ١١٢).

(٧) يعرف بهذا الاسم الآن. انظر: نفس المرجع والصفحة.

(٨) ربما كان هو الحمام المسمى الآن بحمام التوتة؛ إذ هو أصغر حمام يوجد في البلد -مكناسة- مع ظهور قدمه.

(٩) ذكر في نسخة (أ، ج، د، هـ و) باسم غنصاليه، ويذكر كونثا لغو من أسرة ملكية أسبانية، أعلن إسلامه وسمي بأبي زكريا يحيى بن كونثا لغو أو غنصاله اللاجئ، ويعرف باسم ابن أخت ألفونسو، وقد بحث عن المأوى فخرج إلى الحضرة المراكشية مع طائفة من الجند النصارى، وخرج مع جند الرشيد عام (٦٣٠-٦٤٠هـ/ ١٢٣٢-١٢٤٢م) إلى وادي تانسفت، ونشب قتال بين الفريقين انتصر فيه غنصاله، وبعد ذلك استقر بمكناسة وتزيَّ بزي الموحدين. انظر ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٣٠٧، خوسى اليماني: الكتائب المسيحية في خدمة الملوك المغاربة، مجلة

المهاجر المعروف بابن أخت ألفنش[١] في العشر الثانية من القرن السابع[٢] حمامًا كبيرًا حفيلًا محكمًا، فجاء في غاية الإتقان، وكان أبو زكريا هذا فنشيًّا هاجر إلى سلطان الموحدين[٣] واستوطن مكناسة مظهرًا لدين الإسلام، وكان يسكن بها في دار كبيرة بشرقي الجامع الأعظم مقابلة لأحد أبوابه تنسب لعلي بن أبي بكر أحد حفاظ الموحدين، كان قد ولي العمل بها، وكان أبو زكريا هذا قائد فرسان يتصرف في ردع شرار البربر الرحالين[٤]، وكان في زي الموحدين فاعلًا للخير محبًّا في (أهله)[٥]، وله في إحداث هذا الحمام مناقب اشتهرت عنه من إرضائه أصحاب الديار التي اشتراها لذلك في أثمانها وغير ذلك، وعمر هذا الحمام ما شاء الله تعالى، ثم خرب منذ زمان، وآثارها باقية لهذا العهد عند سوق الغزل منها، وفيه يقول الأستاذ أبو عبد الله بن جابر في «رجزه المسمى»[٦] بنزة الناظر:

دعوة الحق، عدد ٥، المغرب (١٩٧٨م)، ص٣٧، الصديق بن عربي: طوائف وشخصيات مسيحية =

= بالمغرب، مجلة تطوان، عدد ١، المغرب (١٩٥٦م)، ص١٥٠، محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، عصر الموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة (١٩٦٤م)، ص٤٩٩، ٥٠٣، وحمام غنصاله اتُّخذ في عصر الدولة العلوية معصرة للزيتون، وبقي كذلك سنين متطاولة، والآن جعل محل للبارود. للمزيد انظر ابن زيدان: مرجع سابق (١/ ١١٢).

(١) ألفونسو بن قرناندو الثالث، ملك قشتالة (١٢١٧-١٢٥٢هـ/ ٦١٤-٦٥٠م).

(٢) في عهد المنتصر بالله بن الناصر بن يعقوب المنصور الموحدي.

(٣) السلطان عبد الواحد الرشيد (٦٣٠-٦٤٠هـ/ ١٢٣٢-١٢٤٢م).

(٤) استخدم أهل الذمة أو من دخل الإسلام في ردع شرار البربر وقبض الجبايات والأموال؛ لكونهم ليس لهم عصبية قبلية يميلون لها في حالة إلزامهم بدفع الأموال. انظر الحكيم: الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق: حسين مؤنس، دار الشروق (١٩٨٦م) ص١٣٧.

(٥) في كل النسخ (أهاله) والصحيح كما ذكر.

(٦) لم يذكر في نسخة (ب).

وإنما[١] الحمام «بناه»[٢] ألفنش ذاك الذي إذ كان كان العيش

وقد ذاكرت بذلك يومًا ونحن بها شيخنا الخطيب البليغ أبا العباس «أحمد بن سعيد»[٣] الغفجميسي فقال يعارضه من غير كبير روية:

هناك حمام بناه ألفنش وهو الذي قد[٤] كان فيه الفحش
من الرجال ومن النسوان يكشف أعضاء لهم حسان
لأجل هذا نابه الخراب فلم يكن بعد به طياب[٥]
بل «بان»[٦] منه الماء والأتواب فحاله في جوفه انسكاب
وصار مأوى البوم والوطواط من غير درهم ولا قيراط
والعنكبوت عمرت أركانه بنسج أرديتها المهانة
كذاك عقبى كل شكل زاهي حيد به عن طاعة الإلهِ

وقد كان الشيخ أحمد اللحياني الورتاجني[٧] أيام قياسه بمكناسة

---

(١) في نسخة (ج)، (د) «وذاك».

(٢) في نسخة (أ، ب، هـ و) «كان»، ابن زيدان: مرجع سابق (١/ ١١١).

(٣) في نسخة (ج) غير موجود «أحمد بن سعيد».

(٤) «قد» غير موجودة في نسخة (ج).

(٥) الطياب في اللغة العامية المغربية هو شخص مستخدم بالحمام يملا الماء الساخن للمستحمين، ويكبس أجسادهم، ويعينهم على الغسل، والطيابة بالنسبة للنساء كذلك، وواضح أن أصل الكلمة عربية لكون الطيب؛ أي: المعالج بالطيب والمستطيب أيضًا من يسأل الماء العذب.

(٦) في نسخة (د) «بده».

(٧) الشيخ أحمد اللحياني الورتاجني: اسمه الحسن بن يوسف الخيري وزير السلطان أبي سالم (٧٦٠هـ-١٣٥٩م) ولد الشيخ الليحاني عام (٧٣٥هـ-١٣٣٤م) وكان له دور في استقبال السلطان أبي سالم عندما قدم من غرناطة لطلب السلطة، فجعله السلطان وزيرًا له، وعندما ثار الوزير حسن بن عمر بتادلا=

(الزيتون)[١] أحدث بها حمامًا حول داره (واندثر)[٢] بعده، ثم عمر لهذا العهد ينسب إليه، فيقال له حمام المريني[٣]، وهو الآن رابع حمامتها.

ويقال بلغت عمارتها إلى أن كان بها أربعمائة مسجد، قال الأستاذ ابن جابر: وحول كل مسجد سقاية، فالله تعالى أعلم، وللمدينة ستة أبواب: باب البراذعيين، وباب المشاورين[٤]، وبمقربة منه «هوايمي أرتجمي»[٥] ودار الأشراف، وجامع الخطبة (القديمة)[٦]، ويعرف لهذا العهد بجامع النجارين، وباب عيسى[٧]، وباب

= عام (٧٦١هـ-١٣٥٩م) أرسل السلطان أبي سالم الوزير حسن بن يوسف الورتاجني بجيش سار على الفور إلى تادلا وحاصرها بكل السُبل بالحيلة والمال إلى أن ثار أهل تادلا على الوزير حسن بن عمر وسلموه إلى الشيخ الورتاجني، فرحل به إلى فاس، فأمر السلطان بإركابه جمل وطيف به بين جموع الناس.

وبعد فترة ثار الورتاجني بمكناسة الزيتون ورحل إلى شالة ونهب كتبها، وحمل ما فيها من المصاحف المحلاة بالنقدين والتحف المحبسة. انظر ابن خلدون: العبر، م٦، ص٦٣٤،٦٣٥،٦٤٣. ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص٢٦٣، الدكالي: الإتحاف الوجيز، تاريخ العدوتين، تحقيق: مصطفى أبو شقراء، المغرب (١٩٨٦م)، ص٧٠، السلاوي: الاستقصا، (٤/ ٣٢، ٣٣).

(١) في نسخة (د).

(٢) في نسخة (د).

(٣) هو حمام السويقة الآن، ونسب للمريني نسبة للعصر الذي عاش فيه الشيخ أحمد الورتاجني. انظر ابن زيدان: مرجع سابق (١/ ١١٢).

(٤) هدم هذا الباب في القرن (١١ الهجري) وبني وراءه غربًا الباب المسمى اليوم باب بريمة. انظر ابن زيدان: مرجع سابق (١/ ٢٢٥).

(٥) بياض في نسخة (ب) هم نسبه إلى بني دارتجين من بطون زناتة. انظر ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص٢٣٦.

(٦) في نسخة (د).

(٧) هُدم هذا الباب وزيد في القصبة، وموضعه الآن بين باب سعيد وضريح سيدي عبد الرحمن المجدوب، انظر ابن زيدان: مرجع سابق (١/ ٢٢٥).

القلعة[١]، وكان يسمى بهذا الاسم قبل أن تُبنى هنالك القصبة على ما يظهر من كلام بعضهم، والله تعالى أعلم، وباب أقورج[٢]، وباب دردورة[٣]، وربما قيل له باب الصفا، وكانت أقطارها سبعة أسباع: زرهون، وبنو كلثوم، وبنو دتنسكين، ووهاصة، وبنو دنون (زجيان) وأبو «أرجان»[٤] بالجيم المعقودة، وبنو أبي السمح.

ونمت هذه البلاد وعمرت ولم تزل في نمو وقوة حتى انتهت مجابيها إلى مئتين من الآلاف، ثم اختلت بجور العمال، وأخذت في النقص من سنة كائنة العقاب، وكانت كائنة العقاب في صفر من سنة تسع وستمائة[٥]، ثم تفاقم الأمر عند قيام بن مرين على الموحدين، وأتت الفتنة على الحواثر المذكورة كلها ودثرت ولم يبق منها إلا الصوامع والجورات العتيقة، وآخر ما خرب منها ودثر ورزيغه بعدما كانت هذه الحواثر شاركت المدينة المذكورة بعد بنائها في كثرة العمارة، والبقاء لله وحده.

نقلت أكثر ما ذكرته من تقيد وجدته للقاضي أبي الخطاب سهل بن القاسم

---

(١) هُدم هذا الباب وزيد في القصبة، ومكانه الآن قرب باب العلوج التي سميت فيما بعد باب منصور العلج. انظر: نفس المرجع والجزء والصفحة.

(٢) فقد هُدم وزيد في القصبة، وبني إلى الشمال منه باب عبد الرازق. انظر: نفس المرجع والصفحة والجزء.

(٣) هدم هذا الباب وموضعه الآن باب تزيمي، وتزيمي اسم قبيلة أخرج أهلها من الصحراء من عمالة سجلماسة، وغربوا وأسكنوا في هذا الموضع. انظر: ابن زيدان: مرجع سابق (١/ ٢٢٥).

(٤) ذكرت في نسخة (و) «أركان».

(٥) جرت هذه المعركة المعروفة عند مؤرخي المغرب بوقعة العقاب بهضاب نولوسا يوم (١٥ صفر عام ٦٠٩هـ الموافق ١٦ يوليو ١٢١٢م) بين الموحدين ومسيحي الأندلس، ودارت الدائرة على الموحدين في هذه الموقعة وفني معظم جيش الموحدين، وكان من نتائج هذه الموقعة أن فقدت الدولة الموحدية نفوذها في الأندلس. انظر ابن أبي زرع: الأنس المطرب، ص٢٣٨-٢٤٠، ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٦٢.

بن عبد الله بن محمد بن حماد بن محمد بن زغبوش، وقال فيه: إن حمادًا هذا الذي ينسب إليه بنو حماد من بيوت الزغابشة كنيته أبو عيسى يلقب بالقبي لما تزوج بنى دار النارنج بحارة تاورا في أسرع زمان، كان بها مجلس كبير عالٍ محكم البناء، زعموا أنه بناه في أسبوع، وبقيت الدار «قائمة»[1] يسكنها عقبه إلى أوائل المائة السابعة.

ومحمد بن حماد كان فقيهًا قرأ بقرطبة وبغيرها، وصحب جلة من أهل زمانه وهو الذي امتحنه يدر بن ولجوط[2] مع قرابته السبعة حسبما تقدم، وعبد الله بن محمد بن حماد قرأ في صغره بمدينة فاس ومنها هاجر إلى الموحدين، وقرأ بعد على رجال الحضرة ومعهم، وكانت له عناية بتآليف الإمام المهدي، وبها أملاه خليفتهم أبو محمد عبد المؤمن، وله في إثبات هذه الهداية موضوع استخرجه بالاستقراء من الكتاب العزيز، كان شيوخ طلبة الموحدين يسألون أبدًا عن هذا الكتاب، ويثنون عليه وعلى واضعه.

إلى أن ولي الشيخ أبو إبراهيم إسماعيل بن محمد بن أبي المصالى -بإشمام الصاد زايًا- عمل مكناه، وكان متشيعًا للمهدي، حافظًا لتآليفه، قائمًا على مذهبه من طلبة الموحدين ومن زهادهم، وكان ناقدًا عليهم غير راضٍ عما ابتدعوه، فألح في طلب هذا الكتاب في ظفر به، فكان آخر العهد به، وكان عبد الله المذكور قد استقضاه أمير المؤمنين أبو يعقوب[3] بن عبد المؤمن على مدينة

---

(١) غير موجودة في نسخة (ب).

(٢) يدر بن ولكوط في نسخة (و).

(٣) الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي، ثاني الخلفاء الموحدين، ولد عام (٥٣٣هـ-١١٢٨م) وبويع بعد وفاة والده عام (٥٥٨هـ-١١٩٢م) وكان حارسًا شجاعًا مولعًا بالعلم كثير الميل للفلسفة والحكمة، باني مسجد أشبيلية، له عدة معارك ضد نصارى الأندلس، وفي إحدى المعارك أصيب ومات قرب الجزيرة الخضراء بالأندلس، فحُمل ودُفن بتينملل عام (٥٨٠هـ-١١٨٤م). انظر: ابن الخطيب: الإحاطة، (٤/ ٣٥٤-٣٥٦).

شاطبة[١] وجزيرة شقر[٢]، ومن ذلك الوقت استقر بشرق الأندلس بعض ذريته، ولما أسن رغب في إيطان بلده، فأسعفت رغبته واستوطن داره بتاورا إلى أن مات سنة أربع وتسعين وخمسمائة في سن الثمانين، وزعموا أنه لم يدخل قط «تاجرارت»[٣] التي هي مدينة مكناسة أنفة منه لما أصيب به والده وقرابته من المحنة التي تقدم ذكرها[٤].

وكان إذا أراد لقاء الشيخ محمد «بن عبد الله»[٥] بن واجاج تلقاه بالبحيرة التي تولى غراستها في ذلك التاريخ كما تقدم، وكان ببلده مكرمًا وجيهًا يزوره قضاته وطلبته وأعيانه، وأما القاسم ابنه فولي القضاء بجهات المغرب وبجهات غرناطة[٦]،

---

(١) شاطبة: مدينة جليلة متقنه حصينة لها قصبتان ممتعتان أرضها خصبة كثيرة الثمار هوائها طيب، يعمل بها الكاغد ويصدر للشرق والغرب. انظر الإدريسي: مصدر سابق (٢/ ٥٥٦)، الحميري: مصدر سابق، ص٣٣٧.

(٢) جزيرة شقر: جزيرة بالأندلس، تبعد عن بلنسية ثمانية عشر ميلًا، كثيرة الشجر والثمار، بها جامع ومسجد والفنادق والأسواق، انظر الإدريسي: مصدر سابق (٢/ ٥٥٦)، الحميري: مصدر سابق، ص٣٤٩.

(٣) ذكرت «تاجدرت» في نسخة (د)، و«تأجررت» في نسخة (أ،ب)، وفي نسخة (ج).

(٤) سبق ذكر هذه المحنة.

(٥) غير موجودة في نسخة (ب).

(٦) غرناطة: تقع في الركن الشمالي الشرقي لشبه الجزيرة الأيبيرية، اتسعت في (القرن ٥هـ/ ١١م) إلى أن أصبحت مركزًا للثورة؛ وذلك لأن بني زيري اتخذوها عاصمة لهم، وازدادت أهمية غرناطة بعد سقوط الأمصار الأندلسية؛ حيث أصبحت حاضرة ملوك بني الأحمر، وقد عرفت باسم دمشق الأندلس لشدة التشابه بينهما، كما أنها موطن جند دمشق، ويقال لها: غرناطة اليهود؛ لكثرتهم فيها، وظلت غرناطة بأيدي المسلمين إلى أن سقطت بيد النصارى عام (٨٩٨هـ-١٤٩٢م). انظر الحميري: الروض المعطار، ص٤٥-٤٦. ابن الخطيب: اللمحة البدرية في الدولة النصرية، بعناية محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، القاهرة (١٣٤٧هـ) ص١٢-٢٩.

ثم انقبض عن ذلك واقتصر على الفلاحة ببلده تاورا «وانتقل إليها سنة (٥٩٧هـ) فخرج للقائه أهل تاورا»[١]، وأوفر ما كانوا عددًا وثروة، ومعهم السودان المسمون هنالك عبيد الحرمة، ورجال السودان يلعبون الثقاف بالحديد، ويرقصون ونساؤهم يضربن والة اللعب ويغنين، والزامر يزمر عليهم بأبي قرون[٢]، وكانت هذه المناكر من عوائدهم في أفراحهم، وأقام بتاورا حتى مات رحمه الله تعالى.

وأما ابنه أبو الخطاب سهل الذي نقلنا من تقييده، فذكر أنه ولد بوادي أش[٣]، وارتحل به أبوه إلى تاورا، «ثم ارتحل هو بعد موت أبيه هناك إلى الأندلس آخر سنة ست عشرة وستمائة، وذلك لما توالت أسباب الخراب على تاورا»[٤] وغيرها من الحواثر، فولي في الأندلس قضاء أماكن كثيرة، مرة في رندة[٥]، ومرة في (استجة)[٦]، ومرة في غيرهما،

---

(١) غير موجودة في نسخة (هـ).

(٢) القرن عبارة عن قرن كبش يُنفخ فيه أيام الأعياد والاحتفال. انظر الونشريسي: مصدر سابق، (٦/ ٤١٨).

(٣) وادي أش: مدينة بالأندلس قريبة من غرناطة عليها سور من الحجارة، ويمر بها نهر يأتي من جبل شلير؛ لذلك قامت الأرحاء لسقي سكانها، كما زرع القطن والزيتون وأصناف الثمار؛ مثلك الأعناب والتوت، وتكثر بها الحمامات. انظر الإدريسي: مصدر سابق (٢/ ٥٦٧، ٥٦٨)، الحميري: مصدر سابق، ص ٦٠٤.

(٤) زيادة عما ذكر في نسخة (د)، ونسخة (ج).

(٥) رندة: معقل حصين بالأندلس من أعمال إقليم تاكرنا، وهي مدينة قديمة وبها آثار كثيرة، تقع على نهر ينسب إليها ينبع من جبل طلوبرة بغربيها، كما يوجد بغربها عين تعرف بالبرادة، وتجري مياهها من أول الربيع إلى آخر الصيف وتجف في الخريف. انظر ياقوت الحموي: مصدر سابق، (٣/ ٧٣)، الحميري: مصدر سابق، ص٢٦٩.

(٦) ذكرت «أستجة» في نسخة (و) ونسخة (أ)؛ وهي مدينة أسسها الرومان أقيمت على الضفة اليسرى لنهر شنيل أحد روافد النهر الكبير، وتطل على الرصيف الأعظم الذي شيده الرومان، والرصيف يخترق وسط الأندلس إلى جنوبها، وكان ينفتح في سورها عدة أبواب منها باب السويقة لوجود=

وولي مرة قضاء طنجة[١]، ثم قدم آخرًا مسددًا بمرسية[٢]، والبقاء لله وحده.

وأظن أني وقفت في بعض التواريخ على أن بني عبدوس من جملة قرى مكناسة، كبني برنوس، والمفهوم من ذلك أن أهلها من جملة قبائل مكناسة، وإليهم ينسب العبادسة من بني معطى أعقاب الشيخ الفقيه المشاور المدرس أبي عمران العبدوسي[٣]، فمنهم ولده

= سوق بجواره إلى جانب أسواق أخرى وفنادق جمة، وجامعها في ربضها مبني بالصخر له خمس بلاطات على أعمدة رخام، وتجاوره كنيسة للنصارى، وأرض أستجة خصبة كثيرة الثمار والبساتين والفواكه؛ لذلك تنوعت مصادر استجه الاقتصادية؛ لأنها جمعت فوائد البر والبحر لذلك وسع عمرانها، انظر ابن غالب: فرحة الأنفس، تحقيق: لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة (١٩٥٥م) (٢/ ٢٩٥)، ابن حيان: المقتبس، تحقيق: بدرو شالميتا، مدريد (١٩٧٩م) ص٥٩، الحميري: مصدر سابق ص٥٣، إبراهيم عبد المنعم سلامة: التاريخ السياسي لمدينة أستجه منذ الفتح حتى سقوط الدولة الأموية، بحث في مجلة المؤرخ العربي، عدد ٨ مارس، القاهرة (٢٠٠٠م) ص٣٩٦، ٣٩٨.

(١) طنجة: مدينة على ساحل البحر المتوسط مقابل الأندلس، وهي مدينة بها آثار عامرة، ولها سور وأرضها خصبة، وموقع طنجة جعلها ممر للقوافل المارة إلى الأندلس؛ لكونها آخر حدود إفريقية من المغرب. انظر: ياقوت الحموي: مصدر سابق (٤/ ٤٣)، الحميري: مصدر سابق ص٣٩٦، الحسن الوزان: مصدر سابق (١/ ٣١٤).

(٢) مرسية: قاعدة تدمر، بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم واتخذت دارًا للعمال ومصرًا للفواد، ومرسية على نهر كبير يُسقى جميعها لذلك كثر بها الزرع، كما يُصنع بها البُسط الرفيعة التي لا يُصنع مثلها؛ لذلك كثر بها الأسواق العامرة والحمامات، كما بها جامع كبير، ولمرور النهر الأبيض بها بني عليه قنطرة، كما وجدت بها أرحاء، كما كثر بها الأرباض لكثرة سكانها إلى جانب وجود حصون وقلاع، وبين مرسية وقرطبة عشر مراحل، وبلنسية خمس مراحل. انظر الإدريسي: مصدر سابق (٢/ ٥٥٦-٥٦٢)، ياقوت الحموي: مصدر سابق (٥/ ١٠٧)، الحميري: مصدر سابق ص٥٣٩، ٥٤٠.

(٣) أبو عمران العبدوسي: من كبار فقهاء المالكية بفاس، أخذ عن عبد العزيز القوري وعن عبد الرحمن بن عفان الجزولي، وكان لأبي عمران مجلس بفاس يحضره الفقهاء والمدرسون والصلحاء وحفاظ المدونة، وكان يحضر بين يديه من الطلبة نحو أربعين طالبًا، وكان يعظم كثيرًا الشيخ أبا يعزي، فحكي عنه أنه إذا حرث يُخرج للضعفاء تسعة أعشار صابته، ويمسك عشرها عكس الزكاة،=

الفقيه المحدث الحافظ أبو القاسم[١]، وولده أيضًا الفقيه أبو عبد الله[٢]، وحفيده الفقيه المحدث الحجة شيخ شيوخنا أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن موسى بن معطى العبدوسي[٣]، وهم بيت كبير من بيوت القلم، أقام فيهم العلم ورياسته دهرًا

= ويقول: من سوء أدبي أخرج العشر وأمسك بالتسعة، كما كان أبو عمران فقيهًا حافظًا فاهمًا للفقه لذلك تتلمذ على يديه الكثير من العلماء والصلحاء؛ مثل: ابن عباد، وأبي حفص الرجراجي، وأبي عبد الله الهواري، وناهيك بهم في الولاية والإمامة، وتوفي عام (٧٧٦هـ-١٣٧٤م). وللمزيد انظر: أحمد التادلي: كتاب المعزي في مناقب الشيخ أبي يعزي، تحقيق: علي الجاوي، المملكة المغربية (١٩٩٦م) ص٦٩، ١٨٤، ١٨٥، ابن قنفذ: كتاب الوفيات، تحقيق: عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت (١٩٧٨م) ص٣٦٩، ٣٧٠، أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج ص٦٠٤، ٦٠٥، كفاية المحتاج (٢/ ٢٤٢، ٢٤٣)، ابن مخلوف: شجرة النور الذكية، دار الفكر العربي، بيروت، ص٢٣٤، ٢٣٥، ابن القاضي: درة الحجال (٣/ ٦٢٥).

(١) الحافظ أبو القاسم: هو أبو القاسم عبد العزيز موسى بن معطى العبدوسي، نزيل تونس، أخذ عن أبيه وغيره، ووصل من قوة الحافظة الدرجة العظمى قال عنه القاضي أبو عبد الله بن الأزرق: «رأينا منه العجب العجاب من حفظ لا تتوهم يكون لأحد لما رأينا في بلادنا إفريقيا ومجالس أشياخنا بتونس وبجاية ... ولم يشبه العبدوسي في حفظه ... ولا يقدر على طريقته إلا من حاز فطنة كاملة الاستواء ممدة من جميع القوى»، توفي بتونس عام (٨٣٧هـ-١٤٣٣م) وللمزيد انظر: أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج ص٢٧٠-٢٧٤، الأنصاري: فهرست الرصاع، تحقيق: محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، ص٦٠-٦٢، ابن مخلوف: مرجع سابق ص٢٥٢.

(٢) أبو عبد الله بن الإمام أبي عمران موسى العبدوسي: كان فقيهًا عالمًا خيرًا زكيًا ورعًا صالحًا مدرسًا علامة كان حيًا بعد عام (٧٩٠هـ-١٣٨٨م). انظر: أحمد باب التنبكتي: كفاية المحتاج (٢/ ١١٧).

(٣) أبو محمد عبد الله بن محمد بن موسى بن معطى العبدوسي: كان عالمًا بارعًا صالحًا مشهورًا، ولي الفتيا بفاس، واسع الباع في الحفظ، وتولى إمامة جامع القرويين بفاس، قال عنه الشيخ أحمد زروق: «حُملت إليه وأنا رضيع، ولم أزل أتردد عليه في ذلك السن لكون جدتي تقرأ عليه مع أختيه فاطمة وأم هانئ، وكانتا فقيهتين صالحتين، وكان قطبًا في السخاء إمامًا في نصح الأمة، أمات كثيرًا من البدع بالمغرب، وأقام الحدود والحقوق، وكان أكثر علمه فقه الحديث، وحدثت زوجته أنه كان يعمل الخوص خفية ويعطيه لمن لا يعرف أنها له يبيعها، ثم يقوت بها في رمضان، ومناقبه كثيرة، وذكر أن صاحب الترجمة أقوى من جده موسى في العمل، وأن جده أقوى منه في العلم، =

طويلًا حتى في نسائهم، وآخر علمائهم أم هانئ العبدوسية أخت أبي محمد المذكور.

ولما ظهر بنو مرين[١]، وشنوا الغارات على بسائط المغرب، واختل أمر

= وكان صاحب الترجمة شيخ لجماعة الفقهاء والصوفية، وتخرج به جماعة كالفقيه المحقق ابن آملال، والفقيه القوري، وأبي محمد الورياجلي وغيرهم، وله نظم حسن مشهور في مسألة شهادة السماع، نقل عنه الونشريسي جملة من الفتاوى كثيرة. انظر: أحمد التادلي: مصدر سابق ص٢٧٨، ٢٧٩، أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج ص٢٣١، ٢٣٢، كفاية المحتاج (١/ ٢٥١، ٢٥٢)، ابن القاضي: درة المجال (٣/ ٥٣)، ابن مخلوف: مرجع سابق ص٢٥٥.

(١) بنو مرين: تنسب دولة بني مرين إلى فخذ قوي من قبيلة زناتة التي تسكن الصحراء ويتنقلون ما بين ملوية وسجلماسة، وكان زعماؤهم على صلة بالدول التي تحكم المغرب، وليس أدل على ذلك من مشاركتهم الفعالة في موقعة الأرك عام (٥٦١هـ-١١٩٥م) بقيادة الأمير محيو بن أبي بكر المريني، وبدأ المرينيون يتوغلون في المغرب عام (٦١٠هـ-١٢١٣م) إثر هزيمة الموحدين في موقعة العقاب، وتزعم المرينيين الأمير عبد الحق بن محيو المريني (٥٩٢-٦١٤هـ/ ١١٩٥-١٢١٧م) وبدأ المرينيون في صراع مرير مع الموحدين استمر ثمانية وخمسين عامًا انتهى على يد السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق بدخوله مراكش عام (٦٦٨هـ-١٢٦٩م).

ولما توطدت الدولة بنى السلطان أبو يوسف يعقوب المريني مدينة فاس الجديدة عام (٦٧٤هـ-١٢٧٥م) وتوسعت الدولة إلى أن كان آخر السلاطين العظام أبا عنان (٧٤٩-٧٥٩هـ/ ١٣٤٨-١٣٥٧م) ومن بعده تولى السلطة سلاطين ضعاف سيطر عليهم الوزراء، ولم تستطع الدولة رد الهجوم البرتغالي عن أرض المغرب؛ مما أدخل الدولة في اضطرابات أدت في النهاية إلى ضرب عنق آخر سلاطين بني مرين وهو عبد الحق المريني في صبيحة (يوم الجمعة ١٧ رمضان ٨٦٩هـ-١٤٦٥م). وللمزيد عن بني مرين انظر: الملزوزي: نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك، الرباط (١٩٦٣م) ص٦٦-١٤٥، ابن أبي زرع: روض القرطاس، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ص١٦١ وما بعدها، ابن الأحمر: روضة النسرين في دولة بني مرين، الرباط (١٩٨٢م) ص٨-٤٣، النفحة النسرينية واللمحة المرينية، تحقيق: عدنان محمد، دار سعد الدين، سوريا، دمشق (١٩٩٢م)، ص٣١-٦٨، محمد عيسى الحريري: مرجع سابق ص٣-٥١، عطا أبو رية: مرجع سابق ص٣٧-٣٩.

الموحدين كان من ثورة علي بن العافية[١] بمدينة مكناسة وقيامه على عامل الموحدين وتمكينه البلد من بني مرين، ثم فرارهم عنها ورجوع الموحدين إليها، واعتصام علي بن العافية بالقلوع من جبل زرهون، وخرج خطيبها الشيخ الصالح المتبرك به أبو علي منصور بن حرزوز[٢] مع صبيان المكاتب بألواحهم على رءوسهم شفعاء لأهل بلدهم عند سلطان الموحدين[٣]، لما قدم عليهم وقبل شفاعتهم ما هو معروف، ثم ازداد أمر الموحدين ضعفًا، وعلا أمر بني مرين، فعادت إليهم مدينة مكناسة، وذكر ابن خلدون أن أمير بني مرين[٤] أمر أهل مكناسة حينئذ أن يوجهوا بيعتهم إلى الحفصي سلطان تونس[٥]، فوجهوها إليه، وكانت من إنشاء قاضيهم أبي المطرف بن عميرة[٦]، ثم بعد ذلك استخلص بنو مرين بلاد المغرب كلها، واستقلوا بالأمر.

---

(١) علي بن أبي العافية: فقيه تولى القضاء بمكناسة ليعقوب بن عبد الحق المريني، وكان حيًّا عام (٦٨٤هـ-١٢٨٥م). انظر: ابن القاضي: درة الجمال (٣/ ٢١٧).

(٢) أبي علي منصور بن حرزوز: انظر ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٥٧.

(٣) سلطان الموحدين: هو أمير المؤمنين علي بن إدريس بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي تولى الخلافة (٦٤٠هـ-١٢٤٢م) وتوفي عام (٦٤٦هـ-١٢٤٨م). انظر: ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٥٦.

(٤) أمير بني مرين: هو أبو يحيى بن عبد الحق (٦٤٢-٦٥٦هـ/ ١٢٤٤-١٢٥٨م). انظر: ابن خلدون: العبر، م٧، ج١٣، ص٣٥٤.

(٥) سلطان تونس: هو أبو زكريا يحيى (٦٢٥-٦٤٧هـ/ ١٢٢٧-١٢٤٩م). انظر: ابن خلدون: العبر، م٦، ج١٣، ص٣٥٣.

(٦) أبو المطرف بن عميرة المخزومي: ولد بجزيرة شقر، وقيل ببلنسية في (رمضان عام ٥٨٢هـ-١١٨٤م) بلنسي شقوري الأصل يكنى أبا مطرف، كان أول طلبة العلم شديد العناية بشأن الرواية، فأكثر من سماع الحديث، أخذه عن مشايخ أهله وتفنن في العلوم، ونظر في العقليات وأصول الفقه، ومال إلى الأدب فبرع فيه براعة عُد به من كبار مجيدي النظم، وأما الكتابة فهو علمها المشهور، فكان يُملح كلامه نظمًا ونثرًا بالإشارة إلى التاريخ. =

وصلحت أحوال مكناسة، ولم تعد العمارة بعد ذلك -والله أعلم- لحوائرها، بل صارت كلها جنات وغرس الناس على ردومها، وقد بقي من ذلك لهذا العهد صومعة بني موسى، وصومعة بني زياد، ومسجد السور القديم وصومعته، وحمام بني مروان في عرصة يقال لها اليوم: عرصة الحمام، وسقطت صومعة تاورا لنحو ستين سنة «والله تعالى أعلم»[1].

وذكر ابن خلدون أن السلطان أبا يوسف المريني[2] لما فرغ من بناء البلد

= روى عن عدة مشايخ منهم أبو الخطاب بن واجب، وأبو الربيع بن سالم، وأبو عمر بن عات وخلافه، استكتبه أمير بلنسية زياد بن سعد بن مردنيش، ثم انتقل إلى المغرب، واستكتبه الخليفة الموحدي الرشيد ثم ولاه قضاء مليانة، وفي عهد الخليفة أبي الحسن المعتضد الموحدي تولى قضاء مكناسة الزيتون، ولما قتل المعتضد انتقل إلى سبتة ووقعت له محنة بها انتقل إلى تونس، ثم ولي قضاء مدينة الأرش، ثم انتقل إلى قابس فاستدعاه المستنصر بالله محمد بن أبي زكريا الحفصي، وجعله ممن يحضر مجلسه.

له عدة تصانيف منها: كائنة ميرقة وتغلب الروم عليها نحى فيه منحى العماد الأصفهاني في كتابه «الفتح القسي في الفتح القدسي» وكتاب في تعقيبه على فخر الدين الرازي في كتاب المعالم في أصول الفقه وخلافه، وتوفي بتونس عام (٦٥٦هـ-١٢٥٨م). انظر: ابن الخطيب: الإحاطة (١/ ١٧٣-١٨٠)، المراكشي: الذيل والتكملة، تحقيق: محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت، السفر الأول، ص١٥٠-١٨٠، ابن القاضي: جذوة الاقتباس، قسم١، ص١٤٥، ١٤٦، وأورد نص البيعة ابن عذاري: مصدر سابق (٤/ ٤٤٦-٤٥١).

(١) غير موجود في نسخة (د) ونسخة (ج).

(٢) أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق: ولد في ربيع الأول عام (٦٣٨هـ-١٢٤٠م) وبويع بالخلافة بالجزيرة الخضراء من بلاد الأندلس (٦٥٨هـ-١٢٨٦م) كان كثير الصيام والذكر كريمًا جوادًا لم تهز له قط راية، ولم يكسر له جيش، وهو الذي قطع دولة الموحدين ودخل مراكش عام (٦٦٨هـ-١٢٦٩م) وهو الذي أسس المدينة الجديدة (فاس الجديدة) دار الإمارة، وبنى بها الجامع الأعظم والسوق، وأمر الوزراء وأشياخ بني مرين ببناء الدور بها، إلى جانب حي عرف باسم الملاح -وهو المكان المخصص لسكنى أهل الذمة- ومع مرور الزمن خصص لسكنى اليهود، وجلب لفاس=

الجديد المسمى بفاس الجديد أمر ببناء قصبة مكناسة، وبنا بها السلطان أبو يوسف أيضًا مدرسة الشهود[١] التي بأعلى سماطهم هناك، ويقال لها: مدرسة القاضي؛ لأنه كان يدرس بها القاضي أبو علي الحسن بن عطية الونشريسي[٢]، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

ثم نوه بها أبو الحسن المريني[٣] المسمى بأبي الحسنات الكثير الآثار بالمغرب

= الجديدة الماء العذب من عين عمير. وللمزيد انظر الملزوزي: مصدر سابق، ص٧٧ وما بعدها، ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٤٠٤، الذخيرة السنية، ص١٦١، مجهول: الحلل الموشية، ص٢٩، ابن خلدون: العبر، م٧، ج١٤، ص٤٠١، ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، تحقيق: ماريا خيسوس، الجزائر (١٩٨١م)، ص١١٥، إسماعيل بن الأحمر: روضة النسرين، ص٢٩، النفحة النسرينية، ص٣٠-٣٦، عطا أبو رية: مرجع سابق، ص٨٠.

(١) مدرسة الشهود: زينت بالنقش والجص والفرش على اختلاف أنواعه من الزليجي البديع الرخام المجزع والخشب المحكم النقش والمياه النهرية، وما ينضم إلى ذلك من الأحباس التي تقام بها، وحسب قول ابن غازي: مدرسة الشهود يقال: إنها مدرسة القاضي وهذه المدرسة معروفة اليوم بالمدرسة الفيلالية، وكأنها تنسب لمن كان يسكنها من طالبي العلم أهل تافيلالت. انظر: ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص٤٠٦، وابن زيدان: مرجع سابق (١/ ١١٨).

(٢) القاضي أبو علي الحسن بن عطية الونشريسي: ولد بمكناسة الزيتون وهو من قبيلة لُجين، قدم به والده من البلاد التجانية في زمن السلطان أبي يعقوب يوسف بن عبد الحق، والحسن بن عطية فقيه متفنن حافظ بمسائل الفقه، بصير بالفروع واللغة والحديث والتاريخ، وهو أحد المفتنين بفاس، وتولى القضاء ببادس في دولة السلطان أبي الحسن المريني، ثم تولى الخطابة بجامع القرويين، ثم قدمه السلطان أبو فارس عبد العزيز على قضاء بلدة مكناسة، ثم نقله منها وولاه القضاء بسلا، ثم تخلى عن القضاء واتجه إلى التأليف فألف سماط شهود فاس عدل ويقرى بجامع القرويين. انظر: ابن الأحمر: نثير الجمان في شعر من نظمي الزمان، ص٣٦٧، ٣٦٨، أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص١٥٨.

(٣) أبو الحسن المريني: هو أمير المسلمين علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق (٦٩٧-٧٥٢هـ/ ١٢٩٧-١٣٥١م) بلقب بالمنصور بويع له بفاس عام (٧٣١هـ-١٣٣٠م) بعد وفاة أبيه،=

الأقصى والأوسط والأندلس، فبنى فيها مرافق كثيرة كزاوية القرجة[١]، وزاوية باب المشاورين[٢] وغير ذلك من السقايات والقناطر في طرقاتها ونحوها، ومن أجلّ ذلك المدرسة الجديدة[٣]، وكان قدم للنظر على بنائها قاضيه على المدينة المذكورة أبا محمد

= كانت حياته حافلة بالأحداث السياسية والعسكرية، وامتد سلطانه إلى تونس عاصمة الحفصيين، وأنجد الأندلس بجيوشه بعد اشتداد حملة التنصير، ولكن هزم في موقعة طريف عام (٧٤١هـ-١٣٤٠م) وجهز جيش للعودة للانتقام؛ ولكن علم بوفاة صاحب تونس الحفصي ونشوب الخلاف بين ابنيه، ولكن وقع في خلاف مع قبائل إفريقية، ثم تصالح الطرفان وبويع لابنه أبي عنان بعد انتشار خبر وفاة والده، ولكن عندما رجع أبو الحسن وقع في مشاكل مع مؤيدي ابنه أبي عنان، فخرج أبو الحسن إلى جبل هنتاته وأقام في قبائله زمنًا يسيرًا، واعتل وتوفي عام (٧٥٢هـ-١٣٥١م) ودفن بمراكش ثم نقل إلى فاس. انظر ابن الأحمر: روضة النسرين، ص٢٥. النفحة النسرينية ص٤٧-٤٨، ابن الخطيب: اللمحة البدرية في الدولة النصرية، دار الآفاق الجديدة، بيروت (١٩٨٠م)، ص٩٤، ابن القاضي: جذوة الاقتباس، قسم ٢، ص٤٦١، الناصري: الاستقصا (٣/ ١٨-٢١)، الحريري: مرجع سابق، ص١٠٠-١٢٤، عطا أبو رية: مرجع سابق، ص٤٤.

(١) زاوية القرجة: تسمي عند ابن زيدان القورجة -بتشديد الجيم- فقد عفي منذ أزمنة طوال اسمها، وإن بقي إلى الحين الحالي رسمها وموقع مسماها بالمحل المعروف الآن بعقبة الزيادين. انظر: إتحاف الناس(١/ ١٢٠).

(٢) زاوية باب المشاورين: هي التي بدرب سيدي غريب بمقربة من ضريح سيدي سلامة على يسار الداخل للدرب المذكور من نهج الحمامصيين غير أن هذا الاسم لا يعطى لها الآن، ولا يعرفها به أحد وهي اليوم على حالة يرثى لها عششت بها الأوساخ والأزبال والقازورات وباضت وفرخت، وتحولت كسابقتها القورجية اصطبلًا لربط الدواب، ومربطًا للبقر من غير رادع ولا زاجر. انظر: ابن زيدان: إتحاف أعلام الناس(١/ ١٢٢).

(٣) وأما المدرسة الجديدة فهى المعروفة اليوم بالبوعنانية نسبة لأبي عنان، ولا أعرف وجهًا لهذه النسبة؛ والحال أنها إنما أنشأها والده أبو الحسن -وهو مراد بن غازي- هنا؛ لوجوه: أحدها: قوله: ومن أجل ذلك...إلخ فإنه مشعر بفخامة بنائها وعلو شأنه، وهذه الصفة لاتوجد على الكمال في غيرها من مدارس مكناس، لا سيما مع ما سبق عنه من أن باني مدرسة القاضي هو أبو يوسف، فلم يبقي الاحتمال حينئذ إلا في مدرسة الخضارين، وهذا الاحتمال يدفعه كونها على غير الصفة المنوَّه بها. =

عبد الله بن أبي الغمر، فحدثني والدي رحمه الله أنه كان يسمع محسن أدرك من الشيخ أن السلطان أبا الحسن رحمه الله تعالى لما أُخبر بتمام بنائها جاء إليها ليراها، فقعد على كرسي من كراسي الوضوء حول صهريجها، وجيء بالرسوم المتضمنة للتنفيذات اللازمة فيها، فغرقها في الصهاريج قبل أن يطالع ما فيها وأنشد:

= ثانيها: تصريحه بأنه بناها علي يد قاضيه ابن أبي الغمي، وقد وافق ذلك التنصيص عليه في سادس أبيات القطعة الشعرية المنحوتة في جبس محرابها كما يأتي. ثالثها: أن التاريخ المعين لبنائها في البيت السابع من القطعة الآتية الذي كان ملكًا فيه هو أبو الحسن المذكور، فهو الآمر بتأسيسها والحاضر عند كمالها وتمام تخطيطها، والعيان في ذلك كله يغني عن البيان، فإنه يوجد إلى الحين الحالي منقوشًا على يمين وشمال محراب قبتها ما صورته:

هزّه جفونًا منك في مدرسة ... أربت على كل سني ونزهة

لقد تبددت في فنون وشيها ... كروضة غب انسكاب ديمة

أكملها الباني على اتقانها ... فكمل الحسن بها وتمت

بأمر مولانا المطاع أمره ... على العالي الندى الخليفة

من شرف العلم وأعلى قدره ... وأظهر الحق بكل وجهة

على يدي قاضيه في مكناسة ... ابن أبي الغمي الحميد السيرة

عام ثلاثين وستة خلت ... من بعد سبعمائة للهجرة

فنصر الرحمن من زان بها ... مكناسة الغرب أتم نصرة

ونفع الذي أقام حسنها ... بفضل جد وكريم نية

ما رفعت بيوته في أرضه ... وتلا الأذن لها برفعة

وكان مجيء السلطان أبي الحسن لرؤية هذه المدرسة عند انتهاء بنائها من فاس، وقد بقي على ابن غازي التنصيص على ثالثة بمكناس الموجودة فيها إلى الآن؛ وهي مدرسة الخضارين المعروفة بمدرسة مولاي عبد الله بن حمد، وهي المقابلة لسماط العدول الآن مع ظهور قدمها، وسنذكر ما تجدد فيها من المدارس بعد. انظر: ابن زيدان: مرجع سابق (١/ ١٢٢، ١٢٣).

لا بـــاس بالغـــالي إذا قيـــل حـــسن ... لـــيس لمـــا قـــرَّت بـــه العـــين ثمـــن

ولما ولي بعده ولده أبو عنان[١] نوه بها أيضًا وتفقد أحوالها، وكان من جملة ذلك أن أمر بالاختصار على عشرة من الشهود بها، وعزل الباقين على كثرتهم، وكان من جملة من أثبت في العشرة الذين عينهم الشيخ أبو علي الحسن بن عطية الونشريسي[٢] رحمه الله تعالى، فشق ذلك على بعض شيوخ الشهود المؤرخين لحداثة سن أبي علي المذكور[٣]، فصنع أبو علي رجزًا ورفعه إلى مقام السلطان أبي عنان يقول

(١) أمير المسلمين المتوكل على الله أبو فارس عنان بن أبي الحسن المريني ولد بفاس (١٢ ربيع الأول ٧٢٩هـ-١٣٢٨م) وبويع في تلمسان في حياة أبيه عام (٧٤٩هـ-١٣٤٨م) ومات مقتولًا خنقه وزيره الحسن بن عمر الفودودي عام (٧٥٩هـ-١٣٥٧م). انظر: ابن الأحمر: روضة النسرين ص٢٦، النفحة النسرينية ص٥١، نثير الجمان ص٦٩، ٧٠، ابن القاضي: جذوة الاقتباس، قسم ٢، ص٥٠٨.

(٢) أبو علي الحسن بن عطية الونشريسي: أبو علي الحسن بن عثمان بن عطية؛ وهو ممن لقيه ابن الخطيب بمكناسة الزيتون، وكذلك ابن الأحمر الذي أخذ العلم عنه وأجازه، فيقول عنه: ولد بتاوريرت من حوز مكناسة، وهو من قبيلة تجين وآباؤه كلهم فرسان أولو شجاعة، جده عطية هو الذي ارتحل منهم إلى بلاد التجانية واستقر ببلاد بني مرين، فاستخدمه ملوك بني مرين، ثم تخلى وسكن بحوز مكناسة، وأنجب عثمان أبا الحسن الذي تفقه على يد والده وآخرون، فحفظ مسائل الفقه ودرس اللغة والحديث والتاريخ، فأصبح أحد المفتين بفاس، وكان يُطلق عليه ابن رشد لحفظه المسائل الفقهية؛ لذلك تولى القضاء ببادس في عهد السلطان أبي الحسن المريني، ثم رحل لفاس ليدرس المدونة وغيرها بجامع القرويين، وفي عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز المريني قدمه على قضاء مكناسة، ثم نقله منها إلى سلا، ثم تخلى عن القضاء وجلس شهود عدل بفاس؛ ولكن اعتزل وتفرغ للعبادة، فاعترضته زوجته فقالت له: إما أن ترجع للقضاء، وإما أن تطلقني فإني استأنست أن يخدمني النساء، فرجع إلى القضاء فبقي خمسة عشر يومًا ثم مات. انظر: ابن الأحمر: نثير الجمان ص٢٦٦، ٣٦٧، أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج ص١٥٨-١٦٠، المقري: نفح الطيب (٥/ ٣٥٢-٣٥٤)، محمد بن علي الدكالي: الإتحاف الوجيز، ص١٤٤.

(٣) حول هذه الحادثة انظر: المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر (١٩٦٨م)، (٥/ ٣٥٣).

عنان يقول فيه:

نبـــــدأ أولًا بحمـــــد الله ... ونـــستعينه عـــلى الـــدواهي
ثـــم نـــوالي بالـــصلاة والـــسلام ... عـــلى رســـول دونـــه كـــل الأنـــام
وبعـــد ذا نـــسأل رب العـــالمين ... أن يهـــب النـــصر أمـــير المـــؤمنين
خليفـــــة الله أبـــــا عنـــــان ... لازال في يُمـــــنٍ وفي أمـــــان
ملكـــــه الله مـــــن الـــــبلاد ... مـــن ســـوس الأقـــصى إلى بغـــداد
ويـــسر الحجـــاز والجهـــادا ... وجعـــل الكـــل لـــه مهـــادا
يأيهـــا الخليفـــة المظفـــر ... دونـــك أمـــري أنـــه مفـــر
عبـــدكم نجـــل عطيـــة الحـــسن ... قـــد قيـــل لا يـــشهد إلا إن أســـن
وهـــو في أمـــركم المعهـــود ... مـــن جملـــة العـــشرة الـــشهود
نـــص عليـــه أمـــركم تعيينـــا ... وســـنه قـــارب أربعينـــا
مـــع الـــذي ينتـــسب العبـــد إليـــه ... مـــن طلـــب العلـــم وبحثـــه عليـــه
عـــلى الفـــرائض لـــه أرجـــوزة ... أبـــرز في نظامهـــا أبريـــزة
ومجلـــس عـــلى الرســـالة ... فكيـــف يرجـــو حاســـدٌ زوالـــه
حاشـــا أمـــير المـــؤمنين ذاكـــا ... وعـــد لـــه قـــد بلـــغ الـــسِّماكا[1]
وعلمـــه قـــد طبـــق الآفاقـــا ... وحلمـــه قـــد جـــاوز العراقـــا
وجـــوده مـــشتهر في كلامـــي ... قـــصر عـــن إدراكـــه حـــاتم طـــي[2].

---

(١) السماك: السماء أو السحاب.

(٢) انظر هذه الأبيات في المقري: مصدر سابق، (٥/ ٤٥٣، ٤٥٤). ويقال: إنه لما وصلت الأبيات للسلطان أبي الحسن المريني أمر بإقراره على ذلك.

ولم يزل أهلها أيام بني مرين في خير وثروة، وكانت الصاعقة نزلت أيامهم على صومعة جامعها الأعظم والناس في صلاة العصر، فقتلت نحو سبعة رجال، وهدمت بعض أركان الصومعة، ودخلت في تخوم الأرض بباب بإزاء الصومعة يعرف اليوم بباب الزرائعيين[١]، فانتدب لبنائها شيخ الإسلام الفقيه أبو عمران موسى بن معطي المعروف بالعبدوسي، واستنجد أهل اليسار منهم فجمعوا من المال ما أصلحوا به ما انثلم من الصومعة المذكورة فيما حدثني به والدي الشيخ المعمر أبو زيد عبد الرحمن النيار[٢]، موقت الجامع المذكور ومزوار[٣] مؤذنها.

وكانت المجاشر محدقة بها من كل جهة، كل مجشر بمزارعه وغراساته ومراعيه، إلى أن ظهر فساد السعيد بن عبد العزيز[٤] في أرض المغرب، وذلك في

---

(١) في إتحاف أعلام الناس (١/ ٩٤).

(٢) أبو زيد عبد الرحمن النيار، أندلسي الأصل، مصري المولد والمنشأ، مكناسي السكنى والوفاة توفي عام (٩٦١ هـ-١٥٥٣م) انظر: ابن عيشون: الروض العاطر الأنفاس فيمن اقتبر من الصلحاء بفاس، المغرب (١٩٩٦م)، ص٨٨.

(٣) مزوار: هذه التسمية انفردت بها بلاد المغرب وصاحبها بمثابة صاحب الحسبة في قبيلته، واستمرت هذه التسمية في الدولة الحفصية، والدليل تعيين أبي عبد الرحمن بن خلوف على رأس قبيلته وتسميته بالمزوار. انظر: بوزياني الدراجي: نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية، دار المطبوعات الجامعية، الجزائر (١٩٩٣م)، ص ١٣٨، وفي دولة بني مرين رتبة يتولاها من يقف على باب السلطان لتنفيذ أوامره وتصريف عقوباته وإنزال سطوته، وحفظ المعتقلين في سجونه والعريف عليهم في ذلك ... فالباب له، وأخذ الناس بالوقوف عند الحدود في دار العامة، راجع ابن خلدون: المقدمة (١/ ٤٢٨).

(٤) السلطان الذي كان يحكم المغرب في العشرة الثانية من القرن التاسع ليس هو السعيد بن عبد العزيز؛ بل هو أبو سعيد عثمان بن السلطان أبي العباس أحمد بن السلطان أبي سالم بن أبي الحسن المريني، ولد عام (٧٨٤هـ-١٢٨٢م) وبويع له عام (٨٠٠هـ-١٢٩٧م) وتوفي عام (٨٢٣هـ-١٤٢٠م)، أما السلطان محمد بن عبد العزيز الملقب بالسعيد، فليس من أهل القرن التاسع؛ بل من القرن الثامن =

العشرة الثانية من القرن التاسع، فخلت المجاشر، وانجلى عنها أهلها، فيقال: خلا من مجاشرها حينئذ اثنا عشر ألف مجشر، والبقاء لله وحده.

وكان زيتونها الذي تنسب إليه متصلًا بها وبحارتها من كل جهة، وكانت له غلة عظيمة لا يأتي عليها الحصر، فلما ثار بها الشيخ اللحياني الورتاجني وسام أهلها سوء العذاب، وضبطها للحصار وعصبها بقائد أيوب بن يعقوب الشجاع الذي أربى بشجاعته وشهامته على عامل المرابطين بها يدر بن ولجوط[1]، والذي تقدم ذكره، وملكها اللحياني والمذكور نحو عشرين سنة، وذلك في العشرة الثالثة والعشرة الرابعة من القرن التاسع، فتوالت عليها الفتن بسبب ذلك، وانقعر زيتونها قطعًا وأذاقًا وإحراقًا، واتسع الخرق على الرقع ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم تداركها الله سبحانه بدخول الأمير أبي زكريا الوطاسي[2]، وكان

= بويع عام (٧٧٤هـ-١٣٤٣م) وهو طفل صغير لم يستكمل أربعة أعوام، وخُلع عام (٧٧٦هـ-١٣٧٤م). انظر: ابن الأحمر: روضة النسرين ص٤٠، ٤١، ابن القاضي: جذوة الاقتباس، قسم ٢ ص٤٥٧، الحريري: مرجع سابق، ص١٧٩، ١٧٣.

(١) «بدر بن ولكوط» ذكر في نسخة (و).

(٢) ذكر ابن زيدان في الإتحاف (١/ ٩٤، ٩٥) أنه الإمام أبو زكريا وهذا مخالف لكافة نسخ المخطوطة التي ذكرته على أنه الأمير وهذا الأصح. والأمير أبو زكريا الوطاسي هو أبو عبد الله بن الشيخ بن أبي زكريا الوطاسي وزير عبد الحق المريني آخر سلاطين بني مرين، نجا من بطشه وهرب متنقلًا بين قبائل الصحراء وقبائل الهبط، وكان أبو زكريا شجاعًا بطلًا مغوارًا، فالتف حوله جماعة من أشياع بني وطاس وأخرى من المغاورين، ومدت له يد العون بعض قبائل والرؤساء من أهل الدولة، وأخذوا يكاتبونه سرًا ويستقدمونه إلى العاصمة ويعدونه بالنصر، وكان الذي صرف القلوب إليه سوء سيرة عبد الحق المريني الذي ولّى في أعلى مناصب الدولة -الوزارة- يهوديين أمعنوا في إهانة المسلمين والتنكيل بهم، واعتز بهم اليهود حتى تحكموا في الشرفاء والفقهاء. =

«رضي»[١] الله تعالى عنه متمسكًا، محبًّا للخير مكرمًا لأهله، متخلقًا بالأخلاق الحميدة، والشيم المرضية، فأحسن إلى أهلها، وعفا عن أهل الجفاء منهم وأسقط كثير من الوظائف الظلمية، وجدد بها بعض الرسوم الدراسية، وأنشأ بجامعها المجلس المسمى بالأسبوع؛ لكون القراء يجتمعون فيه لقراءة القرآن العزيز في كل أسبوع، وأمر بتحويل باب الحفاة إلى قرب دار الوضوء الكبرى تقدم ذكرها، ورأى أن ذلك أنسب من الباب الجوفي الذي كان قبل ذلك للحفاة كما تقدم، فلما حضر الصناع في الباب الموالي لدار الوضوء المذكورة ليبنوا به مجرى للماء وجدوا ذلك هناك مبنيًّا بناءً متقنًا، ولم يكن عند أحد به علم، ولا بقي من مسني المدينة من عنده من ذلك خبر، فقضى الناس العجب من فطنة الأمير المذكور رحمه الله تعالى.

وكان بهذا البلد علماء «أجلة»[٢]، فمن مشاهيرهم الشيخ الفقيه القاضي والصالح[٣] «أبو بن ورياش، كان يدرس الموطأ بالمدينة المذكورة، ويملي عليه من المنتقى للباجي»[٤]، ----------=

= فثار الفاسيون والجند بالسلطان وقتلوه، وبايعوا نقيب الشرفاء أبا عبد الله محمد العمراني الجوطي المعروف بالحفيد، فعزم أبو زكريا احتلال فاس لإحياء ملك بني مرين، فجمع جندًا من القبائل الجبلية والخلط وسفيان، وزحف بهم إلى فاس، فخرج إليه أبو عبد الله الحفيد وهزمه بفحص سايس بالقرب من مكناسة عام (٨٧٠هـ-١٤٦٥م) ولكن أبا زكريا لم ييأس فتكمن من احتلال فاس الجديدة، وقام ابن عمه يوسف بغزو فاس القديمة فهزم أبا عبد الله الحفيد وتهيأ الجولابي زكريا، وتمت له البيعة في رمضان (٨٧٦هـ-١٤٧١م) وانصرف لتثبيت حكمه في القبائل المجاورة لفاس وسائر المغرب. انظر: محمد الكراسي: عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل، المطبعة الملكية، الرباط، (١٩٦٣م)، ص١٣، ١٤.

(١) «رحمه» في نسخة (ب).

(٢) في نسخة (ب) «جلة».

(٣) الصالح غير موجودة في نسخة (ب).

(٤) الباجي: هو أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب وارث التجيبي التميمي البطليوسي =

=والاستذكار لابن عبد البر[١]، ويفتتح مجلسه بذكر الله «تعالى»[٢]، وكان يتبرك به ويلتمس منه الدعاء، وقبره «هناك»[٣] معروف «بالموضع»[٤] المسمى بمسجد[٥] الشجر، ومنهم الفقيه الشهير العالم العلامة حائز قصب السبق في المعقول والمنقول، أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل بن الصباغ[٦] رحمه الله تعالى، وقد ذكره أبو عبد الله

= الباجي الأندلسي ولد عام (٤٠٣هـ-١٠١٢م) وبيت أمه من بيت مشيخة كبير في الأندلس، تدرج الباجي في مدارج العلم بسرعة، فجلس أمام شيوخ قرطبة يأخذ عنهم، كما رحل إلى الشرق حتى نبغ في فنون متعددة، فأصبح له شيوخ بالأندلس والشام وبغداد والحجاز، وبعد رحلة استمرت ثلاثة عشر عامًا قضاها في الطلب عفيف النفس قفل راجعًا إلى الأندلس مما سهل على الطلاب الأخذ عنه حتى توفي عام (٤٧٤هـ-١٠٨١م) مؤلفاته كتاب (المنتقى) الذي انتقاه الباجي من كتابه الآخر المسمى (بالاستيفا) وهو شرح موطأ الإمام مالك وهو من أحسن ما أُلف في موضوعه بشهادة كبار العلماء إلى جانب عدة مؤلفات. للمزيد انظر: الباجي: فصول الأحكام، تحقيق الباتولي بن علي، المغرب، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية (١٩٩٠م) ص٧٨-١٢٦.

(١) ابن عبد البر: هو أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي، عالم مشارك ولد عام (٣٦٨هـ-٩٧٨م) تعلم على أيدي فقهاء قرطبة مثل أبي القاسم خلف بن القاسم الحافظ، وعبد الوارث بن سفيان، وأبي الوليد بن الفرض وغيرهم، قال أبو الوليد الباجي: لم يكن بالأندلس مثل أبي عمر بن عبد البر في الحديث، وأحفظ أهل المغرب، قال محمد بن حزم: لا أعلم في الكلام على الفقه والحديث مثله، فكيف أحسن منه؟!. ثم صنع كتاب «الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمنه موطأ مالك من معاني الرأي والآثار». للمزيد انظر: ابن بشكوال: كتاب الصلة، القاهرة (١٩٦٦م)، ص٦٧٧-٦٧٩.

(٢) ذكر في نسخة (ب) «سبحانه».

(٣) ذكرت في نسخة (د) «هنالك».

(٤) غير موجودة في نسخة (د).

(٥) ذكر في نسخة (هـ) بمسيد.

(٦) أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل بن الصباغ المكناسي، فقيه نبيه مدرك حافظ مقدم، حضر إلى تلمسان وأخذ عن الإمام محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري الشهير بالأبلي، في وجود أبي الحسن المريني، وأقام في جملة فقهاء الحضرة إلى أن توفي شهيدًا غريقًا مع أسطول أبي الحسن. انظر ابن =

بن مرزوق[١] الجد في كتابه الذي صنف في مناقب أبي الحسن المريني[٢]، وذكره أبو زيد ابن خلدون في كتابه العبر، وذكره ابن الخطيب السلماني في بعض فهارسه.

وكان من كبار العلماء الذين استصحبهم أبو الحسن المريني في حركته إلى إفريقية، كالفقيه الحافظ أبي عبد الله السطي[٣]، والأستاذ

= مرزوق: المسند الصحيح الحسن ص٢٦٨، ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، طبعه وراجعه محمد أبو شنب، الجزائر (١٩٠٨م)، ص٢١٩.

(١) أبو عبد الله بن مرزوق: هو محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجسي التلمساني ويعرف بالخطيب الأكبر، ولد في تلمسان عام (٧١١هـ-١٣١١م) ومات في القاهرة (٧٨١هـ-١٣٧٩م) ارتحل للمشرق مع أبيه لأداء فريضة الحج، فأخذ العلم علي يد علمائها وعاد إلى تلمسان عام (٧٣٧هـ-١٣٣٧م) وبعد تسع أيام من وصوله دخل أبو الحسن فعينه خطيبًا لجامع العباد، ثم شارك ابن مرزوق في وقعة طريف عام (٧٤١هـ-١٣٤٠م) كما أوفده أبو الحسن إلى قشتالة لإبرام معاهدة الصلح وفداء ابن أبي الحسن الذي وقع أسيرًا في وقعة طريف، كما صاحب أبا الحسن في فتح تونس، ثم عاد إلى المغرب فسجن إلى أن فك سجنه السلطان أبو عنان ورافقه، ثم غضب عليه وسجنه، ثم رافق السلطان أبا سالم المريني ولكن اغتيل فسجن ابن مرزوق للمرة الثالثة، وبعد الإفراج رحل لتونس ولم يتشيع لسلطانها، فرحل إلى الإسكندرية واستقبله السلطان الأشراف ناصر الدين شعبان المتوفي عام (٧٧٨هـ-١٣٧٦م) وأكرمه وعينه خطيب لمسجد صلاح الدين، ومن تلاميذ ابن مرزوق لسان الدين بن الخطيب، وابن قنفذ، وأبو القاسم البرزلي، والشاعر الأندلسي ابن زمرك، وإبراهيم بن محمد بن علي التازي. وللمزيد انظر: ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن ص٢٢-٤٧، وابن الخطيب: الإحاطة (١/ ٢٢٣-٢٢٦)، (٢/ ١٣٦)، ابن مريم: البستان ص٢٠١-٢١٨.

(٢) كتاب هو المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن.

(٣) أبي عبد الله السطي: هو محمد بن علي بن سليمان السطي، من سطه -قبيلة من صنهاجة- بطن من بطون أوربة، نزل أبوه علي بن سليمان مدينة فاس، ونشأ بها، وأخذ الفقه عن أبي الحسن الصغير الزرويلي النيجي صاحب التقيد على المدونة، والفرائض على أبي الحسن الطنجي اليفرني ختم عليه كتاب الحوفي ثماني ختمات، مع مشاركة تامة في الحديث واللسان العربي، وكان حظي المكان عند أبي الحسن المريني، والمدرس في حضرته والمفتي والخطيب في بعض الأوقات، وكان مكبًّا على النظر=

الزواوي[١]، واجتمع هنالك بالأماميين ابن عبد السلام[٢]، وابن هارون شارحي[٣] بن الحاجب، وبالإمامين أبي زيد[٤] وأبي عيسى

= والقراءة والتقيد، لا تراه أبدًا إلا على هذا الحال في المجلس السلطاني، توفي غريقًا في أسطول أبي الحسن المريني في (١٨ ذي القعدة عام ٧٤٩ هـ-١٣٤٩م). انظر: ابن الرصاع: الفهرست، ص٨١، ابن خلدون: التعريف، ص٣١، ابن القاضي: جذوة الاقتباس قسم ١ ص٢٢٨، ٢٢٩.

(١) الأستاذ الزواوي: هو أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي، صاحب العقيدة المنظومة اللامية المشهورة، قال الشيخ زروق: «كان شيخنا ... من أعظم العلماء اتباعًا للسنة، وأكبرهم حالًا في الورع» توفي (٨٨٤هـ- ١٤٧٩م). انظر أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص١٢٧.

(٢) الإمام ابن عبد السلام: هو محمد بن عبد السلام بن يوسف بن كثير قاضي الجماعة التونسي شيخ الإسلام المحقق المشهور، كان عالمًا في علمي الأصول والعربية وعلم الكلام وعلم البيان، ولد عام (٦٧٦هـ-١٢٧٧م) سمع من أبي العباس البطريني، وأدرك جماعة من الشيوخ أجلاء وأخذ عنهم، وولي قضاء الجماعة، شديد على الولاة صارم مهيبًا، تخرج بين يديه جماعة من العلماء والأعلام؛ كأبي عبد الله بن عرفة الورغمي .... له تقاييد وشرح مختصر ابن الحاجب الفقهي شرحًا حسنًا... توفي عام (٧٤٩هـ-١٣٤٨م). انظر: ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة (١٩٧٩م)، (٢/ ٣٣٠)، أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص٤٠٦، البلوي: تاج المفرق في تحليه علماء المشرق، تحقيق: الحسن السائح، المغرب ودولة الإمارات، (١/ ١٧٦، ١٧٧)، ابن الرصاع: الفهرست، ص٨٦، ابن القاضي: درة الحجال (٢/ ١٣٣).

(٣) ابن هارون: هو محمد بن هارون الكتاني التونسي الإمام العلامة الحافظ، له تآليف كشرح مختصري ابن الحاجب الأصلي والفرعي... تولى القضاء بغير تونس، أخذ عنه الأئمة ابن الخطيب وابن مرزوق، وخالد البلوي، ولابن هارون تآليف؛ مثل: شرح المعالم الفقهية، ومختصر التهذيب، وشرح الحاصل، وغيرها، توفي في الوباء العام سنة (٧٠٥هـ-١٣٠٥م). انظر: ابن قنفذ: الوفيات ص٣٥٤، أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص٤٠٧، ٤٠٨، البلوي: مصدر سابق، (٢/٩٨، ٩٩)، ابن مخلوف: مرجع سابق، ص٢١١.

(٤) الإمام أبو زيد: هو إبراهيم بن عبد الرحمن بن الإمام التلمساني، نزيل فاس، ابن شيخ الإسلام الإمام العلامة أبي زيد بن الإمام، له علوم جمة وفتاوى، ونقل عنه المزوني والونشريسي في نوازلهما، توفي بفاس، ودفن بباب الجيزيين عام (٧٩٧هـ-١٣٩٤م). انظر: أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، =

موسى[١] ابني الإمام التلمساني، وأخذ معهم في العلم وأعطى والله تعالى أعلم.

وحدثني شيخنا الأستاذ السيد أبو الحسن علي بن منون الحسني[٢] أنه بلغه عنه أنه أملى في مجلس درسه بمكناسة على قوله عليه السلام: «يا»[٣]، أبا عمير ما فعل النغير؟ أربعمائة فائدة[٤]، وكنت تأملت هذا الحديث فانقدح لي فيه زهاء مائتين

= ص٥٣، ٥٤، ابن القاضي: جذوة الاقتباس، قسم ١ ص٩٧، درة الحجال (١/ ١٨٣)، ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، طبع محمد أبو شنب، الجزائر (١٩٠٨م)، ص٦٣.

(١) الإمام أبو عيسى موسى: خاتمة الحفاظ بالمغرب ممن اصطفاهم السلطان أبو الحسن معه إلى تونس منبوتًا في ظل كرامته، ثم سرحه إلى بلده، وأخذ عنه في رحلته فضلاء تونس منهم ابن خلدون، توفي على أثر الطاعون الجارف للمغرب عام (٧٤٩هـ-١٣٤٨م). لمزيد انظر: ابن خلدون: بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة (١٩٥١م) ص٢٨-٣١، أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص٢٩١-٢٩٧، ابن مخلوف: مرجع سابق ص٢٢٠.

(٢) أبو الحسن علي بن منون الحسني: ولد عام (٧٩٠هـ-١٣٨٨م) وأدرك الفقيه المفتي أبا الحسن علي بن عمر، وأبا حفص الرجراجي، وأبا مهدي بن علال ... وختم ابن غازي عليه القرآن مرارًا «... واستفدت منه كثيرًا» توفي عام (٨٧٠هـ-١٤٦٥م). انظر: أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص٣٣٦، كفاية المحتاج (٢/ ٣٣٦)، ابن زيدان: مرجع سابق، (٥/ ٣٩٣).

(٣) لا توجد في نسخة (هـ).

(٤) حديث شريف: «يا أبا عمير ما فعل النغير؟» خرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: الانبساط مع الناس، ومسلم (الأدب) عن مسلم: النووي شرح مسلم، القاهرة (١٤/ ١٢٨، ١٢٩). عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقًا، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير، قال: أحسبه قال: كان فطيمًا، قال: فكان إذا جاء رسول الله (ص) فرآه قال: «يا أبا عمير ما فعل النغير؟» قال فكان يلعب به. وفي البخاري عن أنس بن مالك أنه كان النبي ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير: «يا أبا عمير، ما فعل النغير؟». البخاري: صحيح البخاري، بيروت، دار إحياء التراث العربي (٨/ ٣٧)، النغير: طائر صغير أحمر المنقار. انظر: المقري: نفح الطيب (٦/ ٢١٥).

وخمسين من الفوائد فقيدت رسومها، ولم أجد فراغًا لبسطها {ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها}[١]، وحدثني بعض أعيان الأصحاب أنه بلغه أن الفقيه ابن الصباغ المذكور سُمع بمقصورة تلمسان المحروسة ينشد كالمعاقب لنفسه:

يا قلب كيف وقعت في أشراكهم ... ولقد عهدتك تحذر الأشراكا
أرضى بذلك في هوًى وصبابة ... هذا لعمر الله قد أشقاكا

ومات رحمه الله تعالى غريقًا[٢] في أسطول أبي الحسن المريني على ساحل تونس هو والفقيه السطي والأستاذ الزواوي وغير «واحد»[٣] في نكبة أبي الحسن المعروفة، ومن نظمه رحمه الله في العلاقات المعتبرة في المجاز وفي المرجحات له:

يا سائلًا حصر العلاقات ... وضع المجاز بها يسوغ ويجمل
خذها مرتبة وكل مقابل ... حكم المقابل فيه حقًّا يحصل
عن ذكر ملزوم يعوض لازم ... وكذا بعلته يعاض معلل
وعن المعمم يستعاض مخصص ... وكذلك عن جزء ينوب المكمل
وعن المحل ينوب ما قد حله ... والحذف للتحفيف فيما يجمل

(١) سورة فاطر آية ٢.

(٢) غرق أسطول أبي الحسن المريني: بعد السيطرة على تونس عقد لابنه أبي الفضل ولايتها ورجع بأسطوله الذي تقدره بعض الروايات بستمائة سفينة، وقد هاج البحر بهذه السفن وغرق من كان مع السلطان من الفقهاء والعلماء والكتاب والأشراف والخاصة، وقذفت الأمواج أبا الحسن إلى شاطئ الجزائر. للمزيد انظر: الزركشي: الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس (١٩٦٦م)، ص٨٩، ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق: محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس (١٣٨٧هـ) ص١٤٨، السلاوي: الاستقصا، (٣/ ١٧٠)، الحريري: مرجع سابق، ص١٢٣.

(٣) ذكرت في نسخة (د) ذلك.

وعن المضاف إليه ناب مضافه ... والضد عن أضداده يستعمل
والشبه في صفة تبين وصورة ... ومن المقيد مطلق قد يبدل
والشيء يسمى باسم ما قد كأنه ... وكذلك يسمى بالبديل المبدل
وضع المجاور في مكانة جاره ... وبهذه حكم التعاكس يكمل
واجعل مكان الشيء آلته وجئ ... بمنكر قصد العموم فيحصل
ومعرف عن مطلق وبه انتهت ... وبحلها حكم التداخل يشمل
وبكثرة وبلاغة ولزومه ... لحقيقة رجحانه يتحصل

ومنهم الفقيه الحافظ أبو سالم إبراهيم بن عبد الكريم الجروز[1] النهم، والفقيه أبو عبد الله القطراني[2]، قال شيخنا أبو عبد الله القوري أنه بلغه أن أحدهما كان يستظهر «كتاب ابن يونس» والآخر يستظهر كتاب تبصرة اللخمي[3]، ومنهم الفقيه المحصل الشريف الحاج المجاور أبو عبد الله محمد بن أبي البركات الحسني[4]، ورأيت له نظمًا بليغًا في «علاقات»[5] المجاز.

---

(١) أبو سالم إبراهيم بن عبد الكريم الجروز، الفقيه المدرس بمدينة مكناسة يعلم الصبيان ويدرس لهم المدونة وقرر أقوال الأئمة، توفي (٧١٧هـ-١٣١٧م). انظر: ابن القاضي: درة الحجال (١/ ١٩٩)، أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص٣٩.

(٢) أبو عبد الله القطراني وقيل (البطرني) هو محمد بن سالم بن الحسن الزياني الإمام أبو عبد الله، توفي بتونس عام (٨٤٨هـ-١٤٤٤م). انظر: أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج ص٥٢٧.

(٣) ذكر في نسخة (د، ج) «تبصرة اللخمي والآخر يستظهر كتاب ابن يونس».

(٤) أبو عبد الله محمد بن أبي البركات الحسني، كان من كبار علماء مجلس السلطان أبي عنان المريني. انظر: ابن بطوطة: الرحلة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار والأسفار، تحقيق: عبد الهادي التازي، المغرب (١٩٩٧م)، (٤/ ٢٩٦).

(٥) ذكر في نسخة (أ) «علامات».

ومنهم الجماعة الذين لقيهم أبو عبد الله بن الخطيب بها عام إحدى وسبعمائة حسبما ذكر في رحلته المسامة بنفاضة الجراب [في علالة الاغتراب][1] قال لما دخلها نزل بدار حافلة وأتت إليه القضاة والعدول والأدباء والفضلاء، فمنهم الشيخ الفقيه القاضي، وكان بها أبو محمد عبد الحق بن سعيد بن محمد[2]، كان من أهل المعرفة والفصاحة قائمًا على كتاب أبي عمرو بن الحاجب، ممتازًا «به»[3] فيما دون تلمسان، قرأه على الشيخين علمي الأفق القبلي أبي موسى وأبي زيد ابني الإمام، وتصدر لإقرائه الآن، فما شئت من اضطلاع ومعرفة، وقيد جزءً نبيلًا على فتوى الإمام أبي بكر بن العربي المسماة بالحاكمة سماه «بالجازمة»[4] على الرسالة الحاكمة، وأجاد فيه وأحسن، وقرأت عليه بعضه وأذن في تحمله.

ومنهم الفقيه الفاضل الخير يونس بن عطية الونشريسي[5] له عناية بفروع

---

(١) ذكر في كل النسخ «فيمن بقي من الأصحاب»؛ ولكن النسخة المحققة ذكرت كما في النص، وواضح من تغلب هذه النسخة أن الجزء الأول مفقود والذي يصف فيه ابن الخطيب بداية رحلته من العاصمة فاس، ثم يتجه إلى مدينة مكناس عام (٧٦١هـ-١٣٥٩م) ليتصل بعلمائها، ثم يواصل رحلته جنوبًا إلى أن يصل إلى جبل هنتاتة في إقليم أطلس الكبير، وهو بداية الجزء الثاني الذي حققه الدكتور أحمد مختار العبادي، وراجعه د/ أحمد فؤاد الأهواني، وطبع في دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة. انظر ص٨.

(٢) أبو محمد عبد الحق بن سعيد بن محمد المكناسي، كان من أهل المعرفة والفصاحة قائمًا على كتاب ابن الحاجب، وكان صاحب هدي وطريق مستقيم وعدل وإنصاف، ولي مكناسة وكان حيًّا عام (٧٦١هـ-١٣٥٩م). انظر: ابن الخطيب: نفاضة الجراب ص١٥٨، أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج ص٢٨٠، ٢٨١، المقري: نفح الطيب (٥/ ٣٥٠، ٣٥١).

(٣) غير موجودة في نسخة (أ).

(٤) ذكرت في نسخة (ج) «الخارقة».

(٥) يونس بن عطية الونشريسي: شيخ ابن الخطيب لقيه بمكناسة الزيتون، وكان له عناية بالفقه، ولي القضاء بقصر كتامة. انظر: المقري: نفح الطيب (٥/ ٣٥١)، أحمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج، (٢/ ٢٦٩).

الفقه، وولي القضاء بقصر كتامة[١]. ومنهم الفقيه العدل أبو علي الحسن بن عثمان بن عطية من أهل الحساب، والقيام على الفرائض والعناية بفروع الفقه، ومن ذوي السذاجة والفضل، ويقرض الشعر، وله أرجوزة في الفرائض مبسوطة العبارة مستوفية المعنى. ومنهم الفقيه العدل الخير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي عفيف[٢] المتصدر لقراءة كتاب الشفا النبوي، ولديه جملة حسنة من أصول الفقه أشف بها على كثير من نظرائه قراءةً منه إياها على أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل بن الصباغ. وشاركه في قراءتها على الإمام أبي عبد الله الأبلي[٣].

---

(١) قصر كتامة: مدينة بالجزيرة الخضراء من أرض الأندلس، ينسب إليها صديقنا الفقيه الأديب الفتح بن موسى مدرس المدرسة برأس عين. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان (٤/ ٣٦٢).

(٢) محمد بن أحمد بن أبي عفيف المكناسي أبو عبد الله، كان فقيهًا عدلًا خيرًا متصدرًا لقراءة كتاب الشفا لأخبار المصطفى للقاضي عياض، لديه جملة حسنة من أصول الفقه وهو من جملة العلماء الذين لقيهم ابن الخطيب بمكناسة الزيتون. انظر: المقري: نفح الطيب، (٥/ ٣٥١)، أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص٤١٧، ٤١٨، ابن زيدان: مرجع سابق، (٣/ ٥٨٤، ٥٨٥).

(٣) الإمام أبي عبد الله الأبلي: هو محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري التلمساني الشهير -نسبة إلى أبله اسم جبل بقرب غرناطة، وحصن أبلية في نواحي قرطبة- أصله من الأندلس من أهل أبله من بلاد الجرف، ومنها انتقل أبوه وعمه، فاستقدمهما بيغمرسان صاحب تلمسان، وأصهر أبو القاضي محمد بن غلبون في ابنته فولدت له محمد، ونشأ بتلمسان في كفالة جده القاضي، فمال إلى انتحال العلم، رحل إلى بلاد المشرق فالتقى في مصر بابن دقيق العيد وابن الرفعة وغيرهم، وحج ورجع إلى تلمسان وبها قرأ المنطق على أبي موسى بن الإمام.

ثم أراد أبو حمو صاحب تلمسان إكراهه على العمل ففر منه إلى فاس، ثم ارتحل إلى مراكش في حدود (٧١٠هـ-١٣١٠م) ونزل على الإمام ابن البناء شيخ المعقول والمنقول والمبرز في التصوف علمًا وحالًا، فلازمه وضلع عليه في علم المعقول والتعليم والحكمة، ثم رجع إلى فاس فانهال عليه طلبة العلم من كل ناحية فانتشر علمه واشتهر ذكره، ولما لقي السلطان أبو الحسن عند فتح تلمسان أبا موسى بن الإمام ذكره له بأطيب الذكر، ووصفه بالتقدم في العلوم، فاستدعاه من فاس ونظمه من طبقة العلماء ولازمه وحضر معه وقعه طريف والقيروان، وأخذ عنه ابن خلدون، ثم طلبه أبو عنان بعد مهلك أبيه فنظمه في طبقة أشياخه ... وأخذ عن صاحب الترجمة خلق كثير؛ كابن الصباغ المكناسي، =

ومنهم الفقيه المدرك الأستاذ في فن العربية أبو علي عمر بن عثمان الونشريسي[١]، حضرت مذكراته في مسألة أعوزت عليه، وطال عنها سؤاله وهي قول الشاعر:

الناس أكيس من أن يمدحوا رجلًا ... ما لم يروا عنده إيثار إحسان

وصورة السؤال: كيف صح وقوع أفعل بين شيئين لا اشتراك بينهما في الوصف؛ إذ أوقع الشاعر أكيس بين الناس وبين أن يمدحوا وهو مؤول بالمصدر وهو المدح ولا يوصف بذلك[٢].

ومنهم «الشيخ»[٣] الفقيه العدل الأديب الإخباري المشارك لها أبو جعفر أحمد بن محمد إبراهيم الأوسي الجنان[٤]، من أهل الظرف والانطباع والفضيلة،

= وابن الخطيب التلمساني، وابن مرزوق الجد، وابن خلدون. للمزيد انظر: ابن مريم: البستان، ص٢١٤-٢١٩.

(١) أبو علي عمر بن عثمان الونشريسي: فقيه عدل متقن نقاد مفتٍ مدرس صالح، له عناية بفروع الفقه، ومعرفة بعرض الشعر والأدب، وهو من جملة من لقيه لسان الدين بن الخطيب من أئمة مكناسة، أخذ عنه ابن الأحمر وجماعة وأجاز لهم، وله عدة مؤلفات منها رجز في الفرائض مبسوط العبارة مستوفي المعنى، كما توجد له عدة مؤلفات نقل منها صاحب المعيار، وكان ضمن عشرة من الشهود التي اختارها السلطان أبو عنان، وكان حيًّا حوالي (٧٩٠هـ-١٣٨٨م). للمزيد انظر: ابن زيدان: مرجع سابق (٣/ ٢-٤).

(٢) قال المقري في نفح الطيب: الإشكال مشهور والجواب عنه بضرب من المجاز ظاهر، وقد أشار إليه أبو حيان في الارتشاف، وجماعة آخرون في قول بعض المؤلفين كقول صاحب التلخيص: (أكثر من أن تحصى)، ولولا السآمة لذكرت ما قيل في ذلك، وخلاصة ما قالوه أن في الكلام تقديرًا. (٥/ ٣٥١) أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص٣٠٢، ٣٠٣.

(٣) غير موجودة في نسخة (أ).

(٤) أحد شيوخ ابن الخطيب وذكره في نفاضة الجراب ص٣٧٦، مع من لقيهم بمكناسة، وانظر أيضًا ابن القاضي: جذوة الاقتباس، قسم ١ ص١٥٢.

كاتب عاقد [الشروط][1] ناظم ناثر مشارك في فنون من العلم، له تصانيف حسن في ثلاثة أسفار اسمه: المنهل المورود في شرح المقصد المحمود، شرح فيه وثائق ابن القاسم فأربأ على الإجادة بيانًا وإفادة، وناولني إياه وأذن في حمله عنه، وأنشدني كثيرًا من شعره، فمن ذلك ما صدر به رسالة يهنئ بها ناقِهًا من مرض:

البس الصحة بُردًا قشيبًا[2] وارشف النعمة شغرًا شنيبًا[3]
واقطف الآمال زهرًا نضيرًا واعطف الإقبال غصنًا رطيبًا
إن يكن ساءك وعد تقضى تجد الأجر عظيمًا رحيبًا
فانتعش دهرك ذا في سرور يصبح الحاسد منه كئيبًا

قال: وقرأت بالدور الخشبي بالدار التي نزلت بها أبياتًا منتقشة استحسنتها لسهولتها، فأخبرني أنها من نظمه وهي:

انظر إلى منزل إذا نظرت عيناك يعجبك كل ما فيه
ينبئ عن رفعة لمالكه وعن ذكاء الحجار لبانيه
يناسب الوشي في أسافله ما يرقم النقش في أعاليه
كأنه روضة مدبجة جاد لها وابل بما فيه
فأظهرت للعيون زخرفها وأوقفتها على تحليه[4]
فهل على بهجة تلوح به ورونق للجمال يبديه
يشهد للساكنين أن لهم من جنة الخلد ما يحاكيه

(١) أضيفت لضبط النص.
(٢) أي: جديد.
(٣) أي: طيب الرائحة.
(٤) في نسخة (هـ) تجليه.

في أبيات أُخر قال وفاتحته محركًا قريحته، ومستثيرًا ما عنده بقوله:

إن كانت الآداب أضحت جنة[١] فلقد غدا جنانها الجنان

أقلامه القضب اللدان[٢] بدوحها والزهر ما رقمته منه بنان

وذكر ابن الخطيب بعد البيتين سجعًا بليغًا، ثم قال: فراجعني الجنان بما نصه:

يا خاطب الآداب مهلًا فقد ردَّكَ عن خطبتها ابن الخطيب

هل غيره في الأرض كفؤ لها وشرطها الكفاءة قول مصيب

أصبح للشرط بها معرسًا فاستفت في الفسخ فهل من مجيب

أيها السيد الذي يتنافس في لقائه ويتغالى، ويصادم بولائه صرف الزمان ويعادلا، وتستنتج نتائج الشرف بمقدمات عرفانه، وتقتنص شوارد العلوم براوية كلامه، فكيف بمذاناة عيانه، جلوت على من بنات فكرك عقائل نواهد، وأقمت بها على معارفك الجمة دلائل وشواهد، واقتنصت بشرك بديهتك من المعالي أوابد شوارد، وفجرت من بلاغتك وبراعتك حياضًا عذبة الموارد، ثم كلفتني من إجراء ظالعي في ميدان ضليعها[٣] مقابلة الشمس المنيرة سراج عند طلوعها، فأخلدت إخلاد مهيض الجناح، وفررت فرار الأعزل عن شاكي السلاح.

وعلمت أنني إن أخذت نفسي بالمقابلة، وأدليت دلو قريحتي للمساجلة، كنت كمن كلف الأيام مراجعة أمسها، أو طلب ممن علته السماء محاولة لمسها، وإن

(١) الجنة هي البستان.

(٢) ذكر في نسخة (هـ) «اللذان».

(٣) الظالع: الذي أصابه الظلع وهو شبه العرج.

رضيت من القريحة بسجيتها وأظهرت القدر الذي كنت امتحت[١] من ركيتها، أصبحت مسخرة للراوين والسامعين، ونبت عن اسمي دواوينهم كما تنبو عن الأشيب عيون العِّين، ثم إن أمرك يا سيدي لا يُحل وثيق مبرمه، ولا يَحل نسخ محكمه، فامتثلته امتثال من لم يجد في نفسه حرجًا من قضائك، ورجوت حسن تجاوزك وإغضائك، أبقاك الله قطبًا لفلك المكارم والمثاثر، وفصًّا لخاتم المحامد والمغافر، والسلام.

قال: ومنهم القاضي بها الشيخ الفقيه الخير أبو عبد الله محمد بن علي بن أبي رمانة[٢]، شيخ فاضل من أهل الحياء والحشمة وذوي السذاجة والعفة، داعبته وقد تأخر عني يوم وصولي بما تقرر عذره وعفا على عتبة الأعتاب، فقلت:

جفا ابن أبي رمانة وجه مقدمي ... ونكب عني معرضًا وتحاماني
وحجب عني حبه غير جاهل ... بأني ضيف والمسيرة من شأني
ولكن درأني مغربيًّا محققًا ... وإن طعامي لم يكن حب رمان

وذكر بعده نثرًا بديعًا يُوقَف عليه في محله[٣]. انتهى.

فأما الجنان هذا فليس هو من بني الجنان المشهورين هناك -وهم أخوالي- وقد أدركت ابنته لصلبه أم الحياء عجوزًا عمياء.

---

(١) امتحت ذكرت في نسخة (هـ)، نسخة (أ) استمحت.

(٢) أبو عبد الله محمد بن علي بن أبي رمانة: تولى القضاء بمكناسة الزيتون، وهو من جملة الأعلام الذين لقيهم ابن الخطيب بها، ووقعت بينهما مداعبة، وله في المعيار أسئلة ومشاورات فيها ينزل بين يديه من النوازل تنبئ عن كامل معرفة وغزير اطلاع. انظر: ابن زيدان: مرجع سابق (٣/ ٥٩٨-٥٩٩).

(٣) نص هذا النثر البديع أورده المقري: نفح الطيب (٥/ ١٤٤).

وأما أبو عبد الله محمد بن أبي عفيف فهو جدي أبو أم أمي رحمهم الله تعالى، وأما أبو محمد بن سعيد بن محمد المكلاتي[١]، فقد كان شيخنا الفقيه والحافظ أبو عبد الله القوري يحكي أن السلطان أبا عنان استقدمه من مكناسة فقدم عليه ومعه أتباعه وأعوانه، فلما بلغ باب المشهور بالبلد الجديد[فاس الجديدة][٢] تركهم مع [بغلته][٣] «ودخل على السلطان فعزله من خطة القضاء؛ بسبب عدم مبالاته به في تنفيذ الحق، فخرج فوجدهم فروا عن [بغلته][٤]» ثم بدا للسلطان «من وقته»[٥] فاسترجعه واستعطفه وأعاده لخطته، فلما خرج وجدهم دائرين [بالبغلة][٦]، وهذا شأن الناس كما قيل:

الناس أعوان من واتته دولته ... وهم عليه إذا خانته أعوان

ومنهم الزغابشة وقد انتقل بعضهم لعدوة الأندلس، وبعضهم لمراكش، وقد ذكر ابن عبد الملك في تكملته[٧] جماعة منهم من قدمائها؛ منهم أبو العباس أحمد بن محمد بن حماد الممتحن مع قرابته السبعة -كما تقدم- كان فقيهًا حافظًا لكتاب الله تعالى، كثير التلاوة له، متدينًا، ماهرًا مع ذلك في معرفة الهيئة والتعديل، عُمي آخر

---

(١) أبو محمد بن سعيد بن محمد المكلاتي: علامة جليل ولي قضاء مكناسة الزيتون، كان متولي خطة القضاء، لكن السلطان أبي عنان عزله عن هذه الخطة؛ بسبب عدم المبالاة به في تنفيذ الحق، ولكن السلطان أعاده لخطته. انظر ابن زيدان: مرجع سابق(٣/ ٥٨٧-٥٨٨).

(٢) إضافة من المحقق.

(٣) ذكرت في نسخة (و) بلغته.

(٤) ذكرت في نسخة (و) بلغته، كما أن ما هو مذكور بين التنصيص لم يذكر في نسخة (أ).

(٥) غير موجود في نسخة (أ).

(٦) ذكر في نسخة (و) بالبلغة.

(٧) أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي من أهل مراكش، ولد بها عام (٦٣٤هـ-١٢٣٦م).

عمره، فلما كان عند الموت تلا: {فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد}[١]، فحدَّث حاضرون أن الله رد عليه بصره، قال حفيد أخيه أبو الخطاب: أفلا أدري أنص لهم على ذلك أم استدلوا بالتلاوة بإخلاده، ومنهم ابنه قاضيها أبو الحسن، ومنهم صهره «قاضيها»[٢] أبو إسحاق بن أبي «العافية»[٣].

ومنهم العبادسة المشار إليهم فيما تقدم، ومنهم أبو علي الونشريسي[٤] «الفقيه»[٥] الأكبر عم أبي علي الأصغر -المتقدم الذكر- ومنهم بنو العافية، ومنهم

(١) سورة ق آية ٢٢.

(٢) ذكرت في نسخة (أ) (د) (ج).

(٣) ذكرت في نسخة (هـ) ونسخة (د) حافة بن أبي العافية: كان فقيهًا خيرًا، عرضت عليه خطة القضاء بعد أبيه فرغب عنها وزهد عنها، ووليها أخوه أبو العز، حلاه ابن غازي بشيخ شيوخنا، أخذ عنه الإمام القوري وانتفع به كثيرًا، وله عدة مسائل واقعة في المدونة،كان على قيد الحياة عام (٦٨٤هـ-١٢٨٥م) انظر ابن زيدان: مرجع سابق (٣/ ٥٧٩-٥٨٠).

(٤) أبو علي الونشريسي: هو أحمد بن يحي بن محمد بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي، ولد بجبال ونشريس -يقع في غرب الجزائر- حوالي عام (٨٣٤هـ-١٤٣٠م) ونشأ بمدينة تلمسان، ودرس على جماعة من الأعلام، ولما بلغ أربعين سنة غضب عليه السلطان أبو ثابت الزياني -سلطان بني زيان سلطان المغرب الأوسط- فأمر بنهب داره، فخرج إلى فاس ولقي بها حفاوة، وأقبل على تدريس المدونة، ومختصر ابن الحاجب، كما شارك في فنون العلم، إلا أنه اهتم بتدريس الفقه فقط، وتخرج على يديه عدد وافر من الفقهاء الذين بلغوا درجات عليا في التدريس والقضاء والفتيا، ألَّف الونشريسي كتبًا عديدة يتعلق معظمها بالفقه المالكي -أصوله وفروعه- إلى جانب درة مؤلفاته؛ وهو المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، وللمزيد عن هذا الكتاب ومؤلفه. انظر: مقدمة كتاب المعيار الذي خرجه جماعة من الفقهاء، بإشراف محمد حجي وآخرين، جـ١ ص (أ -ي) ابن مريم: البستان، في عدة صفحات. كما ذكر أبو علي الونشريسي الأكبر مرتين في نسخة (هـ) (و).

(٥) ذكرت في نسخة (هـ) (أ).

بنو جابر، و«العهليونيون»[١] وبنو «أركان»[٢] ومنهم بنو عبد «المنان»[٣]، ومما اشتهر من «الحكايات»[٤] عن بعضهم وهو -والله أعلم- أبو العباس أحمد بن يحيى بن عبد المنان[٥]، أنه عرض له الشيطان فيما بين فاس ومكناسة فقال:

أكلتم السابح في لجة ... ولم تفلتوا ذوات الجناح
هذا وقد عرضتم للفنا ... فكيف لو خلدتم يا وقاح

فأجابه ابن المنان[٦] ارتجالًا:

بالعقل[٧] قد فضلنا ربنا ... وسخر الفلك لنا والرياح
والموت والطير متباع لنا ... فما علينا فيها من جناح
«وإنما الموت هناء لنا ... انتقلنا إلى دار الفلاح»[٨]

---

(١) ذكر في نسخة (هـ) (د) الفليونيون.

(٢) ذكر في نسخة (هـ) أركاز.

(٣) ذكر في نسخة (د) المناة.

(٤) ذكرت في نسخة (د) ونسخة (و) وباقي النسخ ذكرت (الحكاية).

(٥) أبو العباس أحمد بن يحيى بن عبد المنان: قدم جده من الأندلس فولاه سلاطين بني مرين على خراج مكناسة، وولوه قيادتها، ونال لديهم جاهًا مكينًا، وفي هذا الجو ولد أحمد بن يحيى، ويكنى أبو العباس، فاستكتبه أمير المؤمنين المتوكل أبو عنان فارس في حضرته السلطانية، واستمر في منصبه هذا طوال مدة حكم عدة سلاطين إلى عهد المستنصر بالله أبي العباس أحمد (٧٧٦-٧٨٦هـ/ ١٣٧٤-١٣٨٤م) وظهر له باع طويل في الشعر وكان مجيدًا في فكرته، يأتي بالغرابة في روايته. للمزيد انظر ابن الأحمر: نثير الجمان، ص٣١٤-٣٥٣، ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص٣٧٤، ابن القاضي: درة الحجال، (١/ ٥٣-٥٥).

(٦) في نسخة (د) المناة.

(٧) ذكرت في نسخة (ج، د) بهذا الشكل (باب كل).

(٨) هذا البيت بشطريه غير موجود في نسخة (أ) (ج) (د) ولكن نص القصيدة موجود زيادة في نسخة (أ).

ومنهم بنو الصباغ، وبنو العريف، وبنو خالد، ومنهم أبو الحسن بن حبق، وقد حدثني الشيخ المعمر أبو زيد عبد الرحمن النيار مزوار المؤذنين بجامعها الأعظم: أن ابن حبق هذا رُئي في المنام بعد موته، فسئل عما لقي من الله سبحانه [وتعالى][1] فأنشد:

حسبوا علي وقيدوا ... فعل القبيح مع الحسن
رأيت أمرًا هائلًا ... حتى لعمري كدت أن
«وعفوا وذلك شأنهم ... لله در أبي الحسن»[2]

وأنشدني شيخنا أبو الحسن علي بن منون الحسني لابن حبق المذكور:

«عبد من الحسنات أصبح مفلسًا ... وضدها ثوب الديانة دنسا»[3]
يمسي ويصبح للخطايا كاسبًا ... لم ينهه مر الصباح ولا ألما

يعاتب نفسه رحمه الله:

«وممن سكنها الأستاذ أبو العباس أحمد البطريني[4] جَدُّ صاحبنا قاضي

(أ).

(١) ذكرت في نسخة (د).

(٢) هذا البيت غير موجود في نسخة (د).

(٣) هذا البيت غير موجود في نسخة (ج) ونسخة (د).

(٤) أبو العباس أحمد البطريني: هو محمد بن أحمد البطريني -وقيل: البطرونى- الأنصاري التونسي، كان إمامًا راوية متقنًا مشاورًا خطيبًا، خدم أبو الحسن الشاذلي، يروي عنه أحزابه، ولد عام (٧٠٣هـ-١٣٠٣م) وتوفي عام (٧٩٣هـ-١٣٩٠م) انظر: أحمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج (٢/ ٩٧) وقيل: اليفريني في نسخة (ب).

الجماعة بفاس ومفتيها أبي عبد الله المكناسي[١] ولها «ينسبون»[٢].

[وممن سكنها][٣] منهم أستاذنا أبو العباس الغماري[٤]، كان شديد الحفظ للقرآن العزيز [يُسأل][٥] عما قبل الآية فيجيب مسرعًا، وكان أستاذ الإقراء، وأستاذ «الغناء»[٦] وكان [رحمه الله][٧] له تلامذة يحسنون الصناعتين[٨].

ومنهم قاضيها أبو المطرف بن عميرة[٩]، وقد ذكر ابن الخطيب في الإحاطة:

---

(١) أبو عبد الله المكناسي: هو محمد بن أحمد بن عبد الله المكناسي، قاضي الجماعة بفاس، اشتهر بالمكناسي، ولد عام (٨٣٩هـ-١٤٣٥م) تولى قضاء فاس أزيد من ثلاثين سنة من عام (٨٨٥هـ-١٤٨٠م) إلى أن توفي عام (٩١٨هـ-١٥١٢م) وكان فاضلًا ذا سياسة، أخذ عن الشيخ القوري وأبيه، له تآليف في مسائل القضاء نقل عنه معاصره ابن غازي في تكميل التقيد، وتولى ابنه الفتوى. انظر أحمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج (٢/ ٢١٦) ابن القاضي: جذوة الاقتباس (١/ ٢٣٩).

(٢) ما بين التنصيص غير موجود في نسخة (أ) ونسخة (هـ).

(٣) زيادة عن النسخ انفردت بها نسخة (و).

(٤) أبو العباس الغماري: هو أحمد بن الحسن الغماري التلمساني، له عدة كرمات، توفي عام (٨٧٤هـ-١٤٦٩م) ودفن بخلوته شرقي الجامع الأعظم، وأخذ عنه الإمام أحمد زروق. وللمزيد انظر ابن مريم: البستان، ص٣١-٣٨، أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص١٢١.

(٥) في نسخة (أ، ب، ج) كتبت (يسئل).

(٦) في نسخة (ب) الغنى.

(٧) زيادة في نسخة (أ).

(٨) في نسخة (و) يضيف الأستاذ عبد الوهاب بن منصور: «وممن سكنها أبو العباس الغماز، كان شديد الحفظ» ومن تاريخ ابن الغماز نجده أنه قبل عصر المؤلف ابن غازي بقرن من الزمان؛ لأنه أستاذ الشيخ القوري، نظرًا لرصد ابن غازي معاصريه حسب سياق نص المخطوط، إلى جانب أنه لا يوجد في كافة النسخ الأخرى هذا النص.

ولمعرفة ابن الغماري انظر الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجايه، تحقيق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر (١٩٧٠م) ص١٣٠،١٢٩، أحمد بابا التبنكتي: نيل الابتهاج، ص٨٠، المقري: نفح الطيب، (٥/ ١٣٤، ٢٣٣).

(٩) أحمد بن عبد الله بن محمد الحسن بن عميرة المخزومي البلنسي، قاضي مكناس، يكنى أبا المطرف،=

الإحاطة: ومنهم ابن عبدون حائز قصب السبق في الشعر والكتابة، ومنهم خطيبها أبو محمد عبد الله بن عون، حدثني شيخنا أبو العباس أحمد بن سعيد الخطيب: أن السلطان أبا عنان لما أن سمع جزالته في خطبته قال لبعض خواصه: أهنا هذا؟! إعجابًا به.

ومنهم خطيبها ابن عبد الله، ومنهم[1] بنو حرزوز، ومن جملتها خطيبها الشيخ الصالح المتبرك به أبو علي منصور بن حرزوز، ومنهم مؤلف زهر الآثام، كان يسكن بدرب النخلة على مقربة من دار الدباغ، وممن سكنها واستوطنها ولي الله تعالى الشيخ الصالح العارف الورع الرباني أبو العباس سيدي أحمد بن عاشر[2]، ومسجده بها معروف، ومنها انتقل لسلا، وفيه يقول ابن الخطيب في قصيدته العينية السلوية وجهها إلى سلا أيام خلف بها وأهله وولده:

بوَلي الله فابدأ وابتدر ... واحد الآحاد في باب الورع[3]

ومنهم الفقيه أبو موسى «العبدوسي»[4] عمران الجناتي[5]، شيخ شيوخنا

المطرف،=

= الفقيه المحدث، الكاتب المتفنن، الشاعر البارع، ولد بجزيرة شقر، وقيل ببلنسيه (عام ٥٨٢هـ-١١٨٦م) وتوفي بتونس عام (٦٥٦هـ-١٢٥٨م) انظر ابن الخطيب: الإحاطة (١/ ١٧٣) الغبريني: مصدر سابق، ص٢٥٠، ابن القاضي: جذوة الاقتباس، قسم ١ ج١٤٥.

(١) ذكر في نسخة (أ) أبي.

(٢) سيدي أحمد بن عاشر الأندلسي الأنصاري الجزيري، نزيل سلا ودفينها، الوالي الصالح المجمع على تقواه وصلاحه، توفي بسلا عام (٧٦٥هـ-١٣٦٣م) انظر المقري: نفح الطيب (٥/ ٣٥٤) أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص٩٦-٩٩، محمد مخلوف: مرجع سابق، ص٢٣٣-٢٣٤.

(٣) ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص٣٧٩.

(٤) ذكر في نسخة (ج).

(٥) عمران بن موسى الجناتي المكناسي الفقيه الحافظ الضابط تلميذ العبدوسي، والقوري، توفي ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م بمكناس ودفن خارج باب عيسى. انظر ابن القاضي: جذوة الاقتباس، قسم ٢

وكان قد قيد على المدونة عن شيخه أبي عمران موسى العبدوسي تقيدًا لا بأس به، وهو الآن بجامع الأندلس من فاس تلاها ما شاء الله «تعالى»[١].

ومنهم الأستاذ المقرئ الشاعر المجيد المحسن شيخ شيوخنا، أبو عبد الله محمد بن جابر الغساني، ذو التصانيف الحسان، والقصائد العجيبة، وله تسميط البردة النبوية للإمام أبي عبد الله البوصيري، ونظم المرقبة العليا في تعبير الرؤيا، وله في «التعريف»[٢] ببلدة مكناسة رجز بديع سماه بنزهة الناظر لابن جابر.

ومنهم الشيخ الصالح الزاهد المتواضع حسن الأخلاق، أبو محمد عبد الله بن حمد[٣]، المتبرك به حيًّا وميتًا، له[٤] بيت حسب بفاس، ارتحل منها للشرق فحج ولقي الأخيار من المشايخ، فأشار عليه بعضهم -فيما يقال- باستيطان مكناسة فاستوطنها حتى توفي بها [٨٣١هـ-١٤٢٧م][٥]، وله مناقب كثيرة رضي الله تعالى عنه[٦].

ص٤٩٨، درة الحجال (٢/ ٤٠٧).

(١) غير موجودة في (ب).

(٢) غير موجودة في نسخة (هـ) و(ب) و(أ).

(٣) ذكر في نسخة (هـ) أحمد. أبو محمد عبد الله بن حمد: فقيه عالم صالح متواضع، له مناقب كثيرة، وكرامات ظاهرة شهيرة، ارتحل من فاس للشرق، ولقي خيار المشايخ فأشار عليه بعضهم باستيطان مكناسة. ومن مآثره الخالدة التالدة أحباسه الوافرة على الضعفاء و الغرباء و المنقطعين وذوي العاهات، أخذ عن صاحب الترجمة الشيخ القوري وأبو زيد القرموني وجماعة، توفي بمكناسة الزيتون عام (٨٣٣هـ-١٤٢٩م) وضريحه مزارة شهيرة مقصودة للتبرك خارج باب البراذعيين أحد أبواب الحضرة المكناسية. للمزيد انظر: ابن زيدان: مرجع سابق (٤/ ٤٩٨-٥٠١).

(٤) غير موجود في نسخة (ج).

(٥) زيادة من المحقق.

(٦) وكان وزيرًا وقته في قضاء حاجة الناس، زيادة من المحقق.

ومنهم أبو زكرياء الصبان الشيخ الصالح المدفون بأبي سهل[١]، ومنهم «الشيخ»[٢] أبو زكرياء بن ترحالين، يقال سماه البربر بذلك «الشجرات»[٣] أمرها بالارتحال من منابتها فارتحلت، والله تعالى أعلم، وهو الشيخ «الصالح»[٤] المدفون بوادي لكل[٥].

ومنهم شيخ شيوخنا أبو عبد الله محمد بن عمر بن الفتوح[٦]، أصله من مدينة تلمسان فانتقل إلى فاس ثم إلى مكناسة، فأقام بها حتى مات هناك رحمه الله تعالى، «حدثني»[٧] شيخنا «أبو زيد عبد الرحمن القرموني»[٨]، وكان قد ارتحل إليه من فاس وإلى رفيقه في العبادة أبي محمد عبد الله بن حمد المذكور، فأقام بخدمه بمدينة

---

(١) نسبة إلى سهل سوس أو آزغار شبه مثلث يضيق بين الأطلسين الكبير والصغير، ويتسع كلما اتجه نحو البحر. انظر: محمد حجي «الحركة الفكرية» (٢/ ٥٧٠).

(٢) غير موجودة في نسخة (ج).

(٣) ذكر في نسخة (ب) شجرة.

(٤) غير موجودة في نسخة (ب).

(٥) ذكرت في نسخة (هـ) الكلي.

(٦) محمد بن عمر بن الفتوح الفقيه المحدث، ولد بتلمسان، ودرس بها على علمائها، ثم انتقل منها بسبب ديني عاطفي، فاستقر أولًا بفاس، ودرس النحو بالألفية في المدرسة المتوكلية .... انظر ابن مريم: البستان، ص٢٦٤.

(٧) في نسخة (د) ونسخة (ج) ومنهم.

(٨) أبو زيد عبد الرحمن القرموني: هو عبد الرحمن بن أبي القاسم القرموني القيسي، ولد عام (٨٠١ هـ-١٣٩٨م) من أسرة ذات علم وتصوف وبيت خير، كان متواضعًا جدًّا، أدرك جماعة كبيرة من العلماء؛ مثل: شيخ الجماعة ابن علال، وأبا القاسم التازغدري، وأبا مهدي عيسى المغراوي، ومن المكناسيين: الزاهد عبد الله بن أحمد، وابن فتوح التلمساني، والقرموني كان مدرسًا وصالحًا وزاهدًا، توفي (٨٦٤هـ-١٣٥٩م).

انظر: أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص٢٥٦، ابن القاضي: درة الحجال (١/ ١٠٢)، جذوة الاقتباس، قسم٢، ص٤٠٥.

مكناسة تسعة أعوام؛ ومن ثم كانت معرفته بوالدي رحمه الله تعالى، وأن السبب في انقطاعه للعبادة وزهده في الدنيا أنه كان في أيام شبيبته حسن المنظر نظيف الثياب، وكان من نجباء طلبة العلم، فمرت به امرأة فجعل يسرف النظر إليها، فقالت له: اتق الله يابن الفتوح «أما تعلم أنه»[١] {يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور}[٢] فنفعه والله كلامها.

[فلما][٣] انتقل من تلمسان إلى فاس أخذ القضية عن شيخ الجماعة أبي موسى عيسى بن علال المصمودي[٤]، وكان يقرأ ألفية ابن مالك بالمدرسة المتوكلية، ويقيم أوذة بالجامكية[٥]، المرتبة عليها، ثم عرضت عليه رياسة التدريس للفقه بمدرسة العطارين، فاستخار الله تعالى فرأى في المنام عجوزًا شمطاء سيقت له في عمارية[٦] بأنواع الملاهي، فعلم أنها الدنيا فلم يقبلها، وكان يضيق ذرعه من مخالطة من لا يحفظ لسانه من الغيبة وغيرها من كلام الهجر، ويتمنى لو وجد رفقاء يعينونه على الخير، فدله بعض الناصحين على الشيخ الصالح أبي محمد عبد الله بن حمد

(١) لا يوجد في نسخة (هـ) و(ب) و(أ).

(٢) سورة غافر آية ١٩.

(٣) ذكر في كافة النسخ (لما) إلا نسخة (د) (فلما) فوجدتها أحسن صياغة.

(٤) عيسى بن علال الكتامي المصمودي، أبو زيد، من مصمودة الهبط، أخذ عن عمر الرجراجي، كان إمامًا بجامع القرويين، ولي الخطابة والقضاء، تتلمذ على يديه الإمام القوري، والأستاذ الصغير وجماعة، توفي عام (٨٢٣هـ-١٤٢٠م) السخاوي: الضوء اللامع، مكتبة القدس، القاهرة (١٣٥٤هـ) (٦/ ١٥٥)، ابن القاضي: جذوة الاقتباس، قسم٢، ص٥٠٢، درة الحجال (٣/ ١٩١) مخلوف: شجرة النور، جـ٢٥١.

(٥) دخل هذا المصطلح بلاد المغرب على عهد الموحدين، عندما دخل طائفة من الأغزاز جندهم، وكانوا يأخذون راتب على ذلك، ثم اتسع اللفظ إلى أن أصبح يطلق على كل راتب. انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المملوكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة (١٩٧٦م) ص٤٢٦.

(٦) شبه هودج تحمل فيه العروس إلى بيت زوجها، ويسمى أيضا البوجة، انظر: نسخة (و).

وأصحابه، فارتحل إليه بمدينة مكناسة، فظفر ببغيته وصار كما قيل: وأفق شن طبقة وافقه «فاعتنقه»[١]

وحدثني والدي رحمة الله أنه كان يراه «يقصد»[٢] إلى المساجد الخالية، ويعمرها بقراءة القرآن العزيز، وحدثني أبو زيد المزوار أنه أول مختصر خليل لهذه البلاد عام خمسة من القرن التاسع، وأنه أصابه الطاعون وهو يقرأ البخاري بالجامع الأعظم من مكناسة عند خزانة الكتب، وذلك عام ثمانية عشر من القرن المذكور، فحمل إلى بيته بالمدرسة الجديدة، فلما كان عند الموت لقنه بعض الناس فقال له: بالذكر عن المذكور غفلة!

وحدثني شيخنا الفقيه العلامة أبو عبد الله القوري، أنه كان يقول: سبب ارتحالي لفاس في طلب الفقه مسألتان سئلنا عنها، فلم يحضرنا جواب مع شهرتهما: سأله المكثر من النذور وهي في كتاب الإيمان والنذور من المدونة، وسأله: من اشترى جارية فشرط أنها ثيب فألفاها بكرًا، ما حضر أصحابنا فيهما شيء غير أنهم قالوا: هذا كمن تلف له قب فوجد حمامًا! وهي منصوصة في نوازل ابن سهل[٣] أنه إن شرط ذلك لغرض كما إذا كان شيخًا كبيرًا لا يطيق الاختراع، أو كان حلف ألا

(١) ذكرت في نسخة (ج، ب، أ) فاعتقه.

(٢) ذكر في نسخة (هـ) ونسخة (أ) يقعد.

(٣) نوازل ابن سهل: مؤلفها أبو الأصبغ عيسى بن سهل بن عبد الله الأسدي، أصله في جيان، سكن قرطبة وتفقه بها، وسمع من حاتم الطرابلسي، وتفقه بابن عتاب ولازمه، أخذ عن علماء جمة، ولي بقرطبة الشورى، ولهذه النوازل أهمية؛ حيث كان الطلاب يختمون تعليمهم بأحكام ابن سهل - النوازل- وتعالج هذه النوازل كافة شئون الحياة، وما يحتاجه المسلم في حياته اليومية من معاملات عامة، وشئون خاصة بالمجتمع المسلم. انظر: محمد عبد الوهاب خلاف: وثائق في أحكام القضاء الجنائي في الأندلس، مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى، القاهرة (١٩٨٠) ص١٠، ١١، ابن سهل: ديوان الأحكام الكبرى، تحقيق: رشيد النعيمي، الرياض (١٩٩٧) ص١، ٢.

يطأ بكرًا، أو أن لا يملكها؛ فله ردها، وإلا فلا.

وحدثني شيخنا أبو عبد الله القوري أيضا أنه لما كان بمكناسة مرضت إحدى يديه، فلم يتمكن من مسح أذنيه إلا باليد الصحيحة، فلما مسح بها اليمنى وأراد أن ينقلها لمسح اليسري أُشكل عليه الأمر في استيناف الماء، فلم يذكر فيه نصًّا فاحتاط وجدد، وكان بينه وبين شيخ الجماعة أبي محمد عبد الله العبدوسي ودٌّ وإخاء، وكان كل «واحد»[١] منهما يفيد صحبه، فكتب إليه يخبره بما نزل به وبما فعل، وهل يذكر فيها نصًّا، فأجابه: لا أذكر فيها شيئًا، ولو نزل بي مثل ذلك لفعلت فعلك.

ومنهم شيخ شيوخنا الفقيه الصالح[٢]، الزاهد الرباني المربي أبو عبد الله محمد بن سعيد الحباك العفجميسي[٣]، أخو شيخنا الخطيب أبي العباس بن سعيد، وشيخه كان -والله تعالى أعلم- في مقام الجلال؛ لأن الغالب عليه البسط والله سبحانه أعلم.

ومنهم شيخ شيوخنا أبو عيسى موسى بن الحاج[٤]، كان إمامًا في علم العربية يقوم على تسهيل ابن مالك، ويقرر ألفيته بجامعها الأعظم تقريرًا حسنًا، وكثيرًا ما ينشد متمثلًا:

خلت الديار فسدت غير مسود ـــ من الشقاء تفردي بالسؤدد

(١) إضافة موجودة في نسخة (د).

(٢) زيادة عن نسخة (هـ).

(٣) ذكر سابقًا الغفجميسي في (ص).

(٤) أبو عيسى موسى بن الحاج، هو موسى بن الحاج أو عيسى ... انظر: أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص٦٠٥.

حدثني بذلك عنه الشيخ «المعمر»[١] أبو عبد الله ابن الأستاذ ابن جابر المذكور، ومنهم الشيخ المعمر الزكي المتفنن الحجة، الحاج «الرحال»[٢]، أبو عبد الله محمد بن عزوز الصنهاجي[٣]، جود القرآن العزيز على الأستاذ ابن جابر المذكور، وحفظ الحديث والتاريخ، «ونبغ»[٤] في الطب، وارتحل إلى المشرق، ولقي به جماعة من الأعلام وأخذ عنهم؛ كالإمام العلامة أبي عبد الله بن مرزوق الحفيد وغيره، ورجع إلى بلده مكناسة، وانتفع به «شيخنا»[٥] أبو عبد الله القوري كثيرًا، وحدثني عنه أنه نزل ببعض المشارقة فقدم له طعامًا عندهم يقال له: البازين، فلم يصب منه شيئًا، ما لك لا تأكل؟ فقال: إنه لم يكن بأرض قومي، فأجدني أعافه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث العنب، فعلم أنه من أهل الحديث، فبالغ في إكرامه.

وحدثني عنه أنه سمع الإمام الرباني أبا عبد الله البلالي -الذي اختصر الإحياء للإمام أبي حامد الغزالي- يقول الحديث الذي جاء فيه: (الباذنجان لما أكل له)[٦] أصح من الحديث الذي جاء فيه: (ماء زمزم لما شرب له)[٧] أو قال هو أمتن منه سندًا أو كما قال.

---

(١) غير موجودة في نسخة (أ) ونسخة (ج).

(٢) ذكرت في نسخة (د).

(٣) أبو عبد الله محمد بن عزوز الصنهاجي: العالم الفاضل العمدة القدوة، أخذ العلم عن والده، علم القراءات والعلوم عن الشيخ زيتونة، والشيخ علي سَويسي، والشيخ مجاهد وأجازه. انظر الكتاني: زهر الآس، (٢/ ٣٢)، محمد مخلوف: شجرة النور الذكية، ص٣٤٧.

(٤) في نسخة (هـ) ونقع.

(٥) ذكرت في كل النسخ ما عدا نسخة (و) شيخًا.

(٦) حديث باطل وموضوع، انظر ابن القيم الجوزي: زاد الميعاد، مصر (١٣٩٢م) (٤/ ٢٩١) الزرقاني: مختصر المقاصد الحسنة، تحقيق: محمد بن لطفي الصباغ، الرياض (١٩٩٥م) ص٩٤.

(٧) حديث حسن؛ بل صحيح، انظر الزرقاني: مصدر سابق، ص١٩٢.

قال شيخنا أبو عبد الله القوري هناك رحمة الله عليهم: ثم تزوج «أبي»[١] زوجه رحمة بنت «الجنان»[٢] رحمة الله عليها، فهي أمي، والحاج المذكور والد إخوتي لأمي.

وقد كانت أمي حفظت منه أحاديث كثيرة من الصحاح «وكادت أن تحيط حفظًا بالأدعية الواردة في الصحاح»[٣]، فحفظتُ منها كثيرًا في أيام الصغر، فلم أتعب في حفظه بعد الكبر -ولله الحمد- وكانت رحمها الله تعالى ملازمة لدرس القرآن العزيز في المصحف، وكان علمها كثيرًا في تفسير قصصه وأخباره، فنفعتنا بذلك في الصغر غاية -برد الله تعالى ضريحها- وحدثني عنه بحكايات وفوائد يطول جلبها، وكان مع ذلك جيد القريحة في الشعر.

حدثني الشيخ المعمر أبو عبد الله ابن الأستاذ ابن جابر قال: خرج «أبي»[٤] مرة بتلامذته لينزههم بعرصة كانت له بوادي أبي عمامر، وأغفل تلميذه أبا عبد الله بن عزوز فلم يدعه فيهم، فقال يعاتبه في ذلك:

ليت شعري وذاك ليس بمغني ... ما يرد الفوات حرف تمني
أي ذنب قرفته يا عمادي ... فحزمنا من قربكم قرب عدن
ومنحنا الأعراض إذ عرض النا ... س فأعظم بذلك الذنب مني
وهب الذنب فيه يعظم هلا ... منكم كان حسن عفو وظني

(١) غير موجودة في نسخة (أ).
(٢) في نسخة (د) الجناة.
(٣) ما بين التنصيص غير موجود في نسخة (أ).
(٤) غير موجودة في نسخة (أ).

في أبيات كثيرة، فأجابه الأستاذ بقصده علق بحفظي منها:

يـــا بـــديعًا فـــاق البـــديع بـــنظم ـــ في عـــروض مـــن الخفيـــف ووزن

يعني: بديع الزمان وعلامة همدان.

وكان له صديق من بني العافية يقال له: يحيى، وهو أخو الفقيه القاضي أبي العز، فمرض فكواه طبيب كان هنالك يقال له: ابن سالم، فمات، فرثاه بقصيدة رائية يقول فيها معرضًا بقتل الطبيب [ابن سالم][1] إياه بالكيّ:

ولقـــد تـــوفي قلبـــي فراقـــك كيـــة ـــ كـــادت تكـــون كـــما كـــواك المحـــور

ومنهم شيخ شيوخنا الفقيه الخير الناصح أبو عبد الله محمد بن العافية[2] المعروف بالأحول كان عيبه «صحب»[3]، شيخنا القوري انتفع به كثيرًا، وله موضوع في المسائل الواقعة في المدونة في غير مواضعها، وقد كان أبو العباس «أحمد»[4] قاضيًا بالمدينة المذكورة، فلما عرضت عليه الخطة بعد أبيه زهد فيها، وهو أخو أبي العز ويحيى المذكورين فوق هذا.

ومنهم الفقيه أبو الحسن علي بن عمر، وقد تقدم ذكر أبي الحسن التلاجدوتي.

ومنهم الفقيه المشاور المفتي الحجة أبو القاسم بن حبيب الحريشي[5]، وكان

---

(١) ابن سالم ذكرت لضبط النص.

(٢) لمزيد عن أبو عبد الله محمد بن العافية، انظر أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص٥٣١.

(٣) في نسخة (هـ) ونسخة (أ) ذكرت نصح.

(٤) غير موجودة في نسخة (ج).

(٥) أبو القاسم بن حبيب الحريشي: فقيه علامة مشاور مشارك، كان عبد الله العبدوسي يثني عليه في

أبو محمد عبد الله العبدوسي يثني عليه في مجلسه، وقد أدركته بالسن فقط، ومنهم الفقيه العدل المعروف بابن سعدون[١]، وممن أدركته منهم الفقيه الأستاذ القاضي أبو عبد الله الغرناطي[٢]، والقاضي الأعدل الثبت أبو عبد الله بن أخضري[٣]، والشيخ المعمر العدل الأديب المجيد الشاعر المفلق أبو زيد عبد الرحمن بن ثابت[٤]، قد كان في أسلافه من ولي قضاء المدينة المذكورة فيما أخبرني به شيخنا القوري «رحمه الله»[٥].

حدثني ابن ثابت المذكور أنه كان بينه وبين جدي للأم أبي زيد عبد الرحمن «بن»[٦] الجنان رحمه الله «تعالى»[٧] صداقة، فكان من حسن عهده يراعني في ذلك على صغر سني، وحدثني بمنافسة كانت بينه وبين الأستاذ أبي عبد الله بن جابر بسبب القصيدة اللامية النبوية، قالها في أيام المولد ومطلعها:

ألا حي الديار لسيلى ... ومر بها إذا أدلجت لسيلا

ومهما جئت مغناها سحيرا ... فجرر للتحية فيها ذيلا

وهي قصيدة كبيرة عجيبة مشهورة عندهم، وقال له أبو محمد عبد الله

مجلسه، تبعه صاحب تكميل الديباج، ونقل عنه السجلماسي في كتابه: شرح العمل في باب الصفقة. انظر ابن زيدان: مرجع سابق (٥/ ٥٣٦).

(١) ابن سعدون.

(٢) أبو عبد الله الغرناطي: هو ابن أحمد اليفني أبو الفرج، كان فقيهًا عالمًا إمامًا نقل عنه الونشريسي في المعيار، وكان حيًّا في حدود عام (٨٦٠هـ-١٤٥٥م) لذلك اتخذ في مجلس السلطان أبي عنان، انظر ابن بطوطة: الرملة، ص٢٩٦، أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص٢٣٣.

(٣) أبو عبد الله بن أخضري، تولى القضاء بمراكش، انظر ابن زيدان: مرجع سابق (٣/ ٢٣).

(٤) أبو زيد عبد الرحمن بن ثابت، لم نعثر على ترجمة له في المصادر.

(٥) غير موجودة في نسخة (أ، ب).

(٦) ذكرت في نسخة (د).

(٧) غير موجودة في نسخة (د).

العبدوسي ذات يوم وقد رآه قوس أو كاد: لا تنحنِ يا شيخ، لا تنحنِ، فقال مجيبًا له بديهة:

يـا سـليل الكـرام نفـسي فـداكا ... قلـت لا تنحنـي وأنـت كـذاك
خفـض الظهـر فاعـل الـدهر منـا ... مـع حـال عـدمت منهـا انفكاكـا
خـتـم الله للجميـع بخـيـر ... أنـه قـادر عـلى فعـل ذاكـا

ومنهم الفقيه العدل الأرضى أبو محمد عبد الله بن العريف[1]، كان مجتهدًا في طلب العلم «ورحل»[2] بسببه لفاس، وروى عن الأستاذ أبي زيد الجادري[3] مقصورة شيخه أبي زيد المكودي[4] التي مطلعها:

أرقنـي بـارق نجـد أن سري ... يـومض مـا بـين فـرادى وثنـا

(١) أبو محمد عبد الله بن العريف: كان أهل العبادة والزهد يألفونه ويقصدونه فيحمدون صحبته، مات بمراكش ودفن بها (٥٣٠هـ-١١٣٥م). انظر التادلي: التشوق إلى رجال التصوف، تحقيق: أحمد توفيق، المغرب (١٩٨٤م) ص١١٨.

(٢) غير موجودة في نسخة (د).

(٣) أبي زيد الجادري: هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن يوسف المديونى ثم الجادرى أبو زيد، ولد عام (٧٧٧هـ-١٣٧٥م) واستوطن فاس، ولي توقيت جامع القرويين، وكان مقرئًا نحويًا حسابيًا، قرأ بالسبع على أبي عمر وعثمان الوزروالي، وله عدة تواليف، توفي عام (٨٤٠هـ-١٤٣٦م) انظر أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص٢٥٥، ٢٥٦، كفاية المحتاج (١/ ٢٧٤).

(٤) أبي زيد المكودي: هو عبد الرحمن بن علي بن صالح المكودي، الإمام النحوي، ألّف شرحًا مختصرًا على الألفية، نقل عنه ابن غازي، وله: شرح الآجرومية، ونظم المعرب من الألفاظ، والمقصورة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم على نمط مقصورة ابن دريد نحو ثلاثمائة بيت، وله أيضًا رجز في التصريف نحو أربعمائة بيت، أخذ عنه الإمام الربانى الحفيد ابن مرزوق، وأثنى عليه بالعلم والصلاح والفضل، توفي عام (٨٠٧هـ-١٤٠٤م). انظر أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص٢٥٠، مخلوف: شجرة النور الذكية، ص٢٤٩.

أهينـــي اذهـــب منـــه موصـــنًا ماســـد مـــابين فـــرادي وثنـــا
«شـــمتت مـــن أبي زيـــد شـــممبته ريح هبا أقوى من ريح الكباه»[1]
فيـــا لـــه مـــن بـــارق ذكـــرني من الهوى ما كنت عنه في غنى
أثـــار شـــوقًا منـــي كامنًـــا بين ضلوعي طال ما فيها ثوا

وروي عنه وعن غيره غيرها، وظهرت نجابته، إلا أنه اخترمته المنية في صغره، كما اتفق لمعاصره أبي الفضل بن المجراد[2] بمدينة سلا، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا ولم أدرك هذا الفاضل، وقد كانت بيننا وبين نجله الفقيه القاضي الأرضى الأعدل أبي عبد الله صحبة ومؤاخاة، وكان له حسن عهد ما رأيته لغيره رحمه الله تعالى.

وممن أدركته وزرته الشيخ الصالح الملامتي ذو المكاشفات لا تحصى، والبركات التي لا تستقصى، أبو يوسف يعقوب المعروف بأبي فقف[3]، تواترت كرامته عند الخاصة والعامة من أهل مكناسة وفاس وغيرهما، وفي حفظي منها ما لو دونته لخرج في كراريس -والله تعالى أعلم- وكفي ما ظهر عند موته كرامة وبركة؛ وذلك أنه لما احتمل إلى قبره خارج باب البراذعيين منها، اتبعته طيرًا بيض ما رُئيت إلا في ذلك الوقت، فكانت ترفرف على نعشه حتى أُدخل «قبره»[4] رضي الله تعالى عنه، ورأى ذلك كل من شهد جنازته من الرجال ومن النساء، وقد خرج أهل

(١) سقط هذا البيت من نسخة (أ) ونسخة (هـ) ونسخة (و).

(٢) أبي عبد الله محمد بن محمد بن عمران الفترارى السلوي، عرف بالمجراد، أبو عبد الله فقيه ومحدث ومدرس وصالح، أخذ عن الفخار الخولاني وأبي الفضل بن أبي الحسن المزدغي، توفي عام (٧٧٨هـ-١٣٧٦م) انظر أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص٤٥٨، ٤٥٧، كفاية المحتاج (٢/ ٩٤) السلاوي: الاستقصا (٤-٨٣) محمد مخلوف: شجرة النور، ص٢٣٥.

(٣) أبي يوسف يعقوب بن فقف، لم نعثر له على ترجمة في المصادر.

(٤) ذكرت في نسخة (ب).

المدينة كلهم إلا من شذ، ولم أكن هنالك يومئذ، وكنت أقرأ في فاس.

ولو تتبعنا من كان فيها من الأعيان والسادات ما طمعنا بالإحاطة بعشر عشرة، وقد كنت أردت أن أجمع من أمكن منهم، مرتبين على حروف المعجم، فجمعت منهم جملة صالحة، ثم خمدت القريحة عن ذلك، وجمدت الطبيعة، وعاقت العوائق وشطر المزار:

«تكلفني ليلى وقد شط وليها»[1] وعادت عواد بيننا أو خطوب

«وما برز من الغيب»[2] فهو المختار وربك يخلق ما يشاء

ولو لم يكن من مغاني مدينة مكناسة إلا اشتمال عملها على مدفن ولي الله تعالى المجمع عليه شيخ المشايخ سيدي أبي يعزي[3] لكان كافيًا، وقد ذكرت في الفهرسة الموسومة بالتعليل برسوم الأستاذ -بعد انتقال أهل المنزل والناد- بعض من لقيت بها كالشيخ الفقيه المتفنن أبي زيد عبد الرحمن الكواني[4]، والشيخ الأستاذ

---

(١) لم يذكر إلا في نسخة (و).

(٢) ذكرت في كافة النسخ ما عدا نسخة (أ) حيث قيل: وسافر زمن الخصب.

(٣) أبو يعزى النور بن ميمون، من قبيلة هسكورة، وقال أبو علي الصواف من كبار أصحاب الشيخ أبي مدين: رأيت أخبار الصالحين من زمان أويس القرني إلى زمننا، فما رأيت أعجب من أخبار أبي يعزى، عاش أبو يعزى حوالي (١٣٠) سنة، وتوفي عام (٥٧٢هـ-١١٧٦م) ودفن بجبل أيروجان، وكان قطب عصره وأعجوبة دهره. للمزيد انظر التادلي: التشوف، ص٢١٣-٢٢٢، ابن القاضي: جذوة الاقتباس، قسم ٢، ص٥٦٤، أبو العباس العزفي: دعامة اليقين في زعامة المتقين، تحقيق: أحمد توفيق، المغرب، (١٩٨٩) ص (أ، ي) أحمد التادلي الصومعي: كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى، ص٦٤، ٢٠٧، السلاوي: الاستقصا (٢/ ٢١٠).

(٤) أبو زيد عبد الرحمن الكوانى، وطن مكناسة ودرس بها، راجع عليه ابن غازي عدة كتب منها: الرسالة، وفرائض التلقين، وغيرهما، وأخذ عن أبي يعقوب الأنصاري وعمر الرجراجي المكودي، وسمع المدونة على شيوخ الجامعة ابن علال، وتفقه بالتازغدري، وأخذ الأصليين عن العكرمي ويوسف السيتاني، توفي عام (٨٦٠هـ-١٤٥٥م) انظر أحمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج (١/ ٢٧٦).

أبي الحسن بن منون الحسني، والشيخ الخطيب الأحفل أبي العباس أحمد بن سعيد «الغفجميسي»[١]، كما ذكرت هناك شيخنا العلامة أبو عبد الله القوري فيمن لقيت بمدينة فاس -كلاها الله «تعالى»[٢]- وكان هذان الشيخان قد ارتحلا من مكناسة إلى فاس، وسبب ارتحالهما مشهور عند الناس، فلنقبض عنه العنان، والله تعالى المستعان.

وقد رأيت أن أختم هذا المجموع بما ذكر أبو عبد الله بن الخطيب في رحلته المسماة بنفاضة الجراب فيمن بقي من الأصحاب لما عرف بهذه المدينة «قال»[٣]:

(وأطلت[٤] مدينة مكناسة في مظهر «النجد»[٥] «رافلة»[٦] في حلة «الروح»[٧]، مبتسمة عن ثيب المياه العذبة، «سافرة»[٨] عن أجمل المرئي، قد أحكم وضعها الذي أفرج المرعي، قيد النص[٩]، وفذلكة الحسن، فنزلنا بها منزلًا تستطيع العين أن تخلفه حسنًا ووضعًا، من بلد دارت به «المجاثر»[١٠] «المغلة»[١١]، والتفت بسوره الزياتين المفيدة، وراق بخارجه للسلطان المستخلص الذي يسمو إليه

(١) القيجمسي في نسخة (د).

(٢) غير موجودة في نسخة (ب).

(٣) غير موجودة في نسخة (ب) كما أن اسم الرحلة: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب.

(٤) ذكرت وأظلت في نسخة (أ، ج، هـ و).

(٥) ذكرت في نسخة (هـ) المجد.

(٦) ذكرت في نسخة (أ) راجله.

(٧) ذكرت في نسخة (و) الدوح.

(٨) ذكرت في نسخة (هـ) سافلة.

(٩) البصر.

(١٠) ذكرت في نسخة (و) المدائر.

(١١) ذكرت في نسخة (هـ أ) المعلقة.

الطرف، ورحب ساحة، والتفاف شجرة، وبناهة بنية، وإشراف ربوة، «ومثلث»[١] بإزائها الزاوية القدامى المعدة للوراد، ذات البركة النامية، «المئذنة»[٢] السامية والمرافق المتيسرة، يعاقبها «الخان»[٣] البديع المنصب الحصين «الغلق»[٤]، الغاص بالسابلة «الجوابة»[٥] في الأرض «يبتغون»[٦] من فضل الله، تقابلها غربًا الزاوية الحديثة المربية برونق الشبيبة، ومزينة الجدة والانفساح، وتفنن الاحتفال).

والزاويتان معًا من بناء أمير المسلمين أبي الحسن المريني -جدد الله تعالى عليه رحمته بفضله- إلا أن الأولى بناها في دولة أبيه، والثانية بناها بعد استقلاله بالدولة.

ثم قال ابن الخطيب: (وبداخلها مدارس ثلاث لبث العلم، كلفت بها الملوك الجلة أهمم وأخذها التنجيد، فجاءت فائقة الحسن، ما شئت من أبواب نحاسية، وبرك فياضة تقذف فيها «صافي»[٧] الماء أعناق أسديه، وفيها خزائن الكتب، والجراية الدارة على العلماء والمتعلمين، وتفضل هذه المدينة كثيرًا من لذاتها بصحة الهواء، وتبحر أصناف الفواكه، وتعمير «الخزائن»[٨]، ومداومة البر بجوار ترابها «سليمًا»[٩] من الفساد، معافى من العفن؛ إذ تقام ساحات منازلها غالبًا على

(١) ذكرت في نسخة (هـ) ومثلت.
(٢) ذكرت في نسخة (و) المأذنة.
(٣) ذكرت في نسخة (هـ) الجنان.
(٤) ذكرت في نسخة (و) المعلق.
(٥) ذكرت في نسخة (د) الجوافة.
(٦) غير واضحة في نسخة (د) وبياض في نسخة (ج).
(٧) ذكرت في نسخة (هـ) صابي.
(٨) ذكرت في نسخة (هـ) الخزين.
(٩) ذكرت في نسخة (أ) سلمة.

أطباق الآلاف من الأقوات تتناقلها المواريث، ويصاحبها التعمير، وتتجافى عنها الأرض، ومحاسن هذه البلدة المباركة جمة، قال ابن عبدون من أهلها ولله دره:

إن تفتخر فاس بما في طيها ... وبأنها في زيها حسناء
يكفيك من مكناسة أرجاؤها ... والأطيبان هواؤها والماء

«بها منها»[١] شرقا جبل زرهون «المنبجس»[٢] العيون، والظاهر البركة، المتزاحم العمران، الكثير الزياتين والأشجار، وقد جلله الله سكرًا ورزقا حسنًا، فهو عنصر الخير ومادة المجبي، وفي المدينة دور نبيهة وبني أصيلة، والله تعالى ولي من اشتملت عليه بقدرته، «وفيها أقول»[٣]:

بالحسن من مكناسة الزيتون ... قد صح عذر الناظر المفتون
فضل الهواء وصحة الماء الذي ... يجري بها وسلامة المخزون
سحت عليها كل عين ثرة ... للمزن هامية الغمام هتون
فاحمر خد الورد بين أباطح ... وافتر ثغر الزهر فوق غصون
ولقد كفاها شاهدًا مهما ادعت ... قصب السباق القرب من زرهون
جبل تضاحت البروق بجوه ... فبكت عذاب مياهه بعيون[٤]
وكأنما هو بربري «وافد»[٥] ... في لوحه والتين والزيتون

(١) ذكرت في نسخة (ب) ونسخة (و) ويسامنها.
(٢) ذكرت في نسخة (هـ) المتفجر.
(٣) غير موجودة في نسخة (أ).
(٤) لم يذكر صاحب نسخة (و) مياهه كما عيونه والتي لم تذكر في النسخ الأخرى.
(٥) ذكرت في نسخة (هـ) نافذ.

حييت من بلد خصيب مثوى أمان أو مناخ أمون
وضفت عليه من الاله عناية تكسوك ثوبي أمنة وسكون[١]

انتهى ما قصدنا نقله من نفاضة الجراب، ولم أكن وقفت عليها حين ابتدأ هذا المجموع؛ فذلك اقتصرت في صدره على الخمسة أبيات التي علقت بحفظي من هذه القصيدة.

وقال في ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب[٢]:

مكناسة مدينة أصيلة، وشعب المحاسن[٣] وفضيلة، فضلها الله تعالى ورعاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها، فجانبها مريع، وخيرها سريع، ووضعها له في فقه الفضائل تفريع، «عدل»[٤] فيها الزمان، وانسدل الأمان، وفاقت الفواكه «فواكهها»[٥] ولا سيما الرمان، وحفظ أقواتها الاختزان، ولطفت فيها الأواني والكيزان، «واعتدل للجسوم الوزان»[٦]، ودنا من الحضرة[٧] جوارها، فكثر قُصَّادها من الوزراء وزوارها، وبها المدارس والفقهاء، ولقصبتها الأبهة والبهاء، والمقاصير والأبهاء[٨].

(١) هذه الأبيات موجودة في كتاب ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص٣٧١، ٣٧٣.
(٢) الفقرة المنقولة هي في الحقيقة من كتاب ابن الخطيب: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق: محمد كامل شبانه، المغرب (١٩٨٥م) ص١٦٥.
(٣) ذكرت للمحاسن، والأصح كما ذكر في النص.
(٤) في نسخة (و) اعتدل.
(٥) ذكر في نسخة (هـ) فواكهها.
(٦) لم يذكر هذا الكلام إلا في نسخة (و).
(٧) الحضرة هنا هي فاس العاصمة.
(٨) للمزيد عن هذا الوصف راجع ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص١٧٢.

قال المؤلف محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن غازي العثماني منسوبًا لأبي عثمان، وهو من قبيلة كتامة حسبما ذكر ابن خلدون في كتاب العبر[١]: نشأت بهذه «المدينة»[٢]، كما نشأ بها أسلافي، وقرأت بها ثم ارتحلت إلى مدينة فاس في طلب العلم، أظنه سنة ثمان وخمسين وثمانمائة، فأقمت بها ما شاء الله تعالى، ولقيت من الأشياخ بالمدينتين جماعة ذكرت مشاهيرهم في الفهرسة التي سميتها بـ«التعلل برسوم الإسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد» ثم عدت إلى مدينة فاس -كلاها الله تعالى- فاستوطنتها.

وكان ما كان مما لست أذكره ... فظن خيرًا ولا تسأل عن الخبر
وإنما الدنيا قنطرة للعباد ... ويعبرون عليها ليوم المعاد
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يصير[٣] رمادًا بعد ما هو ساطع
وما المال والأهلون إلا وديعة ... ولا بد من يوم ترد الودائع

والله سبحانه يختم لنا ولكم بالحسنى، ويجمعنا وإياكم في المر الأسنى بجاه سيدنا وبنينا ومولانا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين، صلى الله وسلم عليه وآله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين[٤].

---

(١) م ٧، ج ١٣، ص ٤٩٥.

(٢) ذكر في نسخة (د) البلدة.

(٣) ذكر في نسخة (هـ) يحور.

(٤) إلى هنا انتهت النسخ، أما النسخة (هـ) ففيها زيادة «الحمد لله» خرج المؤلف رحمه الله في آخر عمره لقصر كتامة المذكور بقصد الحراسة فألمّ به مرض، فآب إلى فاس واستمر فيه إلى أن توفي بها إثر صلاة الظهر من يوم الأربعاء تاسع جمدى (جمادى) الأولى سنة تسع عشرة وتسعمائة، وصلى عليه ولده أبو العباس سيدي أحمد بالمقابر بالكغادين، الموضع المعروف داخل باب الفتوح عدوة فاس الأندلس صبيحة يوم الخميس التالي له، واحتفل الناس لحضور جنازته احتفالًا عظيمًا، حضرها السلطان ووجوه دولته فمن دونه، وأتبعوه ذكرًا حسنًا وثناء جميلًا، وتأسفوا لفقده أسفًا عظيمًا، رحمه الله ورضي عنه ونفع به، من خط تلميذه سيدي عبد الواحد الونشريسي رحمه الله بواسطتين. =

= - أما نسخة (و) انتهى على يد العبد المذنب العاصي، الخائف من ربه يوم الأخذ بالنواصي؛ الخضر بن محمد بن محمد بن عثمان الشريف العمراني، بزاوية الشيخ سيدي أبي محمد صالح (صبيحة يوم الجمعة ٢ من ربيع النبوي سنة أربع من القرن الثالث عشر).

- أما نسخة (أ) انتهى بحمد الله وحده وعونه، وصلى الله على موكله محمد نبيه وعبده وسلم تسليمًا كثيرًا، وبتاريخ ثلاث وعشرين من جمادى الأولى من عام (٩٥٧م) وذلك بمدينة فاس الجديدة.

- أما نسخة (ج) انتهى الفراغ منه (صبيحة يوم الخميس من فائض صفر الخير تمام ١٢٩٥ من هجرة خير الأنام عليه الصلاة وأزكى السلام.

- أما نسخة (ب) انتهى بحمد الله، والصلاة والسلام على موكلنا رسول الله (صبيحة يوم السبت ٢ من محرم الحرام فاتح ١٢٥١).

- أما نسخة (د) كمل كتاب الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه، الحميد العلي العظيم.